قصةُ غزالٍ ارتحلَ إليها

واستراح..

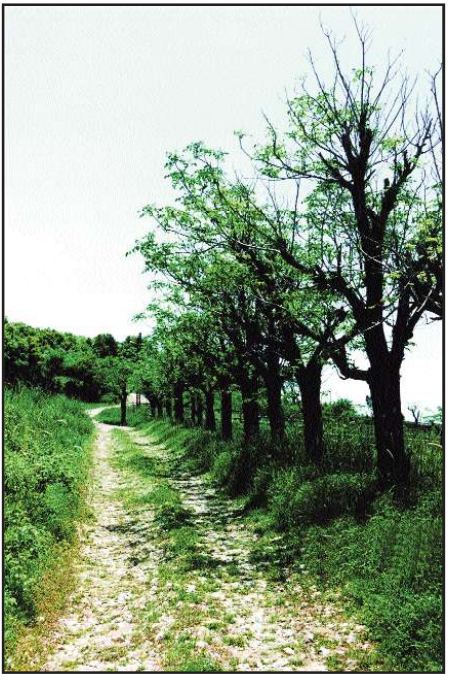

قصَّتُ غزالٍ ارتحلَ إليها واستراح..

الفنُّ هو لغة التخاطب والحوار في عالم المشاعر، كلماته أنغامٌ وأسطُره قصائد، والقلبُ هو الخزّانُ المُبدع، والخالقُ الأعظمُ للجَمالِ والرَّوعةِ المتمثّلة فيه، تميلُ أفئدةُ جميع البشر إلى أعشاشها، ويدفعني حسٌّ جارفٌ وعاطفةٌ جيّاشةٌ إلى الكتابةِ عن روحي، التي خبّأتُها طفلاً بين جذورِ زيتونةٍ زَرَعَتْها أناملي.

الكتابةُ هي الوسيلة المُثلى لرسم خارطةٍ لكلِّ تحرّكات الروح، تفيضُ على لوحٍ حُذفَت منه الحسابات الهندسية والحدود الجغرافية، التي تُحلّل مكنونات الخيال وتُصادر البهاء المرفق بالغموض والعفوية، هي العلاج الذي يبلسم جراح النأي عن قلبي المودع هناك، ويستأصل الشوك المتناثر في جوف فؤادي، هي الأمل الضئيل المختبئ في صفحةٍ سوداء، والوطن الجديد في المنفى، هي الحبُّ الذي لا يفتّته الدهر ولا تزحزحه العواصف..

لا بدَّ من الحفاظ على ريشة قلمي، فهي ماء الخلاص الذي يحيي تلافيف الخلايا الآخذة في الذبول، هي النسيمات العليلة الملطّفة لحرارة الأزمات التي تلفُّ كياني، هي النور الوحيد حين تُسدَل الستائر، هي الحياة التي تجعلني أختلف عن كائنات الدم واللحم والشهوة.

ماذا يقول شخصٌ مثلي يُراد له أن يُحاكي آهات الوجع المزمن، ومسحة الحنان، وترانيم العفوية، وألحاناً نبويةً تناقلتها طيور بلادي، كي تسكن قلوبنا العطشى لبعضٍ من الحب، وتلامس عقولنا المرهفة لقليل من التوازن العفوي، بعيداً من المدنيَّة وتعقيداتها، فالحضارة المستوردة حرمتْنا من أمتع أوقاتٍ للحياة، وأفرغتْ أيامَنا من محتواها..

قُدسيةُ الدِّماء، مَنْ يدرك كنه أسرارها؟ الألم والغضب والجمال، الطفولة والأزقَّة والحواكير، الأحاسيس والعواطف، هل تجيد الكلمات حياكة المشاعر بصدق؟ تحاول الهروب من تجربة الكتابة، فتختبئ خلف أسباب لا تقنعك.

مناجاةٌ أنثويةٌ تشعرُ بأمومتِها. صداها يرتدُّ في قلبِ قلبك: أحِبُّ لريشتِكَ أن ترسمَ محاسني على صفحاتِ أوراقِك، فاترك العنانَ ليراعِك، فإنّ لي رغبةً في التباهي أمام كلّ المدن والبلدات، ولو لمرةٍ واحدةٍ في العمر..

يستبطنُ صراعُ الطفراتِ المتنوّعة جسدَك، تتفلّتُ طفرةُ جنون الكتابة من معاقلِها، يلفُّكَ السكون دقيقة واحدة، وقرارٌ: إنَّ مثلي لا يُخالف مثلها..!

تجدني أرى الصفر اكتُشِفَ لحالي في هذا الظرف، أدور بداخله فأضيع بين بداياته والنهايات.. ذلك هو حالي لحظة البدء في الكتابة عنكِ أيتها الجميلة، فأنّى للرضيع أن يوفّي أمّه حقّها؟ وهو الذي لا يقوى على العيش بدونها، كيف

للمراهق أن يجيد تقييم وعي والدَيه؟ وهو الذي يستمدُّ من تجربتهم سبيلاً للخلاص من تيه خياله، وأنّى للهِرم أن يقوى على مخاطبة كل هذا الكمّ الذي اختزنَتهُ حياتُه في لحظةِ حقيقةٍ مفروضة؟

أحاول استنهاض الطفل في ذاكرتي، وتصويب سلوك المراهق بداخلي، أستفزُّ أحاسيس الشعراء الساكنة قلبي، وأرسم لذاك الهَرِم سُلَّماً أعينه على النزول مرةً أخرى، علَّني أقدر على موافاتك بعض حقّك أيتها البلدة الراكنة على السفوح.

يبقى السَّهو والنسيان وتشتّت الفكر حقيقةً لا يجدي نكرانها، أتيهُ بين أوراقي وأزقَّتك الملأى بالحكايا..

هضابٌ تكتنزُ كلّ هذا الكمّ من الرؤى والمدى.. وهادٌ تختزنُ كلّ هذا الحبّ والصدى.. ترابٌ مجبولٌ بكلِّ هذا العرق والدَّم.. شفاهٌ عطشى لكلِّ الماء.. خضرةٌ سهول حبلى بهذا الحجم من الإخصاب.. أشجارٌ فيها كلّ هذا الشموخ.. جباهُ رجالٍ تخضّبت بكلّ هذه السُّمرة.. أحلامُ أطفالٍ لم تنضب ولن تنضب، ما دام في أفئدتهم نبضٌ لحياة.. ونجومٌ تنير أوراق التاريخ..

تتطاير الأفكار من مخيّلتي، تسكنني غزارة العواطف وحنين العودة، فكيف لقلمي أن يحافظ على اتِّزانه وهو يحاول الخوض في كلِّ هذا الجمال، الحقيقة..؟

والحقيقة ليست جماداً. فالحديث عن الروح صعبٌ إن لم يكن مستحيلاً. نعم، إن الصخر في بلادي ليس جماداً. وكذا السَّهل والوادي والشجر والأحلام..!

ثمَّة علاقةٌ جدلية مليئة بالحبِّ تجمعنا والحجر، بدءًا من أول صنم عُبِد، امتداداً إلى الروحيَّة الأبديّة التي تختزنها أحجار البيت العتيق، وصولاً إلى أزقَّة "جنين" المخيَّم: إنَّ أنامل "الفارس عودة" تُلِمُّ جيِّداً بأبجدية الحياة في الحجارة..

تجرَّأتُ على مغازلةِ صخرةٍ لأنَّ حجراً تجاسر قبلي في "الخليل"، أهيمُ بفتًى يُلاحقُ دبَّابةً بقلبٍ وحجر، طَعْمُ وجعِ أمّه كطَعْمِ وجع أمّي، لَونُه لَوني، عدوُّه عدوّي: غُولٌ معظمه خُرافة..

أحاولُ التمحيص في نفسي لأحفر كلمة على قطار الزَّمن، أستجمع حكايات الأمس وصراعات الحاضر، علَّني أتلمَّس الطَّريقَ إلى مستقبل ولدي أو حفيده، لأنني أرى مستقبل الأشخاص والأمم، استمراراً صحيحاً لماضٍ مهما اعترته الشوائب، فلا بدَّ للقلم من محاكاة معاناة الماضي وعزيمته، لتستطيع الأفئدة رؤية المستقبل..

أسافر إلى الوراء، أقلِّب صفحات الذاكرة المشحونة حتى التخمة، أحاول جمع الكلمات قبل تشتُّت أحرفها، أبحث في فتات أيامي وجزئياتها المملَّة تارةً والزاخرة بالعبر

والمعاني طوراً، أحدِّقُ في زوايا الذاكرة لئلا أنسى شيئاً يلتصق في إحداها..

يحملني الهمُّ إلى البعيد، أغوص عميقاً عميقاً.. ربما أستطيع الولوج في كلِّ التفاصيل، أعجزُ وأعترفُ جهراً، فليس هنالك متَّسع للوقت ولا للصفحات، والأهم من ذلك، أنَّ حرباً شرسةً تُشنُّ على الذاكرة، أسلحتها أحدث ما يتوصَّل إليه عقل البشر..

حتى الخيانة لكثرة شيوعها بدأت تتسلَّل إلى ذاكرتي، فاستهوَتْها وانتمَتْ إلى عالمها المنبوذ، لهذا سأحاول انتزاع القليل قبل أن تتملَّكَها، إنَّ عالم الخيانة لا يعرف ملكوته الرحمة أبداً..

إنَّها طفولةٌ متلئة، ومراهقةٌ مفعمة، وشبابٌ عايشناه بشغف، أمَّا الكهولة فنحياها بالذكريات، تحملني النوارس جنوباً، يُحْمُر عشقُ العيونِ للأزاهير، يُحْمُر تختزن أصل العشق، وأول الحكاية والتفرعات.. .

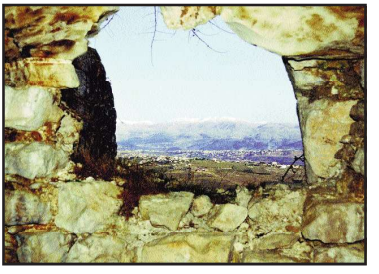

إنَّه العشق.. يتملَّكُكَ وأنت تتجه جنوباً. تلفحك النسائم لحظة العبور، يتلقَّفك عبير أزاهير الليمون منذ الخطوة الأولى، يربكُكَ تبدّل الأشياء وأنت تعلو صعوداً، يدفعك الحنين لتسرعَ أكثر فأكثر، لتلامس أمسيات المواقد وقناديل الزيت، وزفرات الآه السَّاكنة هناك..

صمودٌ بذرته نساء بلادي، فأنبت حُبّاً ورصاصاً..

يصدح خلال المسير صوت "الله أكبر" لشيخٍ جليلٍ يتقدَّم المصلِّين، يمتدُّ نداءً فوق ربى عاملة، يتلو ما تيسَّر من آيات الجهاد حرباً على الأعداء..

ما أروع أن ينتصبَ الحقُّ في ظلِّ الاحتلال البغيض معلناً: أنَّ الموقفَ سلاح..!

تسمعه.. يجعلك تستنهض ما في نفسك من طاقات وقدرات، زاداً يُمكِّنك من متابعة المسير، فترى الخيولَ المدجَّجةَ بالإيمان، سارحةً أمام ناظرَيْك من سور الصين إلى مآذن الأندلس، تعبر قليلاً، ثمَّ تبدو لك على رؤوس التلال سواتر وأعلام مقيتة، تحاول تشويه كل هذا الجمال الرباني.

تقف دقيقة حزن وغضب، إنَّها سبعون كيلو متراً قطعتها من حزام البؤس حول عاصمتك، حيث يحاولون هناك قتل الأمل النابض بداخلك، إلى عشقٍ يدغدغ مشاعرك المتناقضة بين الحبّ والقهر، بين الارتباط

والتهجير، كيف لك أن تتوازن ونفسك في ذروة هذا الصراع..؟

الاسم: يُحْمُر، والكنية: الشقيف، تمييزاً لها عن زميلتها في أقصى البقاع الغربي، يتشابهان بكلّ شيء إلى حدّ التساوي، إنهما توأمان والحَمْل واحد.

وما يُحْمُر سوى بلدة متواضعة ارتوت بغزارة الدَّفق، فشمخت بشبابها جيلاً إثر جيل، بضعة بيوت من الإسمنت والبشر، تربّعت على كتف الوادي، وشاء القدر أن استوَت تلك البلدة، فوق هذا المنحدر الممتدّ إلى صفاء المياه التي اجتمعت من الأرض والسماء، وامتزجت مع رحيق البساتين، وجمال الدحنون، وحنظل شتلات التبغ، وانحناء سنابل القمح الملأى، فاعتمر هذا الليطاني، واكتسب حياةً سرمدية، تمدُّ البلدة وأهلها ببقايا الأمل بمستقبلٍ لا بدَّ آت.

والشقيفُ قلعةٌ شامخةٌ تتَّكئ على سور البلدة الشمالي الشرقي المطلّ على ذات النهر، ليُؤمِّنا التوازن لطبيعتها الجميلة الغنّاء، فتتباهى يُحْمُر بجدائلها أمام البلدات الأخرى..

هي عروس القرى وأمُّ الشهداء...

بساتين الزيتون تَلُوح خضرتها أنّى نظرت، فهي زراعة رئيسة لقلّة الماء في البلدة، وكلّ زيتونة من الثلاثين

ألفاً تأخذ شكل شيخ هرمٍ تجذَّر عميقاً في الزمن، انبرى بجبهته السَّمراء فارضاً قوانينه على ما عداها، حاكى الشمس، فحاكا معاً أنقى الخيوط وأمتن الأشرعة.

إنَّها قلعةٌ.. نثرتَ أحلامَك وطفولةً بريئةً بين جدرانها الصَّلبة حينما كانت الطفولة عالمك الجميل، نما عضدُك ملازماً صلابتها، كَبُرَ عنفوانُك من مَعينِ شموخها، تُرفرفُ الآن عليها رايةٌ للفتك والاغتصاب، جاءتْ لقتلِ أحلامِك وتمريغِ براءتِك بوحول الذلِّ والاستعباد..

فوق الهضبة تستريح القلعة لتغازل بحر "صور" بأبَّهة من العالي البعيد (١٥٠ م)، ولتنقل تحاياه إلى "جبل الشيخ" شرقاً. فهي تتربَّع منتصف المسافة بينهما، تستدرج يُحْمُر خيوط الشمس الأولى عبر نوافذ القلعة المشرَّعة للأمل القادم مع كلِّ صباح، تحاكي "دير ميماس" عبر الشروق، ترسل لها مع حمائم النهر أصدق الآيات، وجنوباً في بطن الغول بلدة "الطَّيبة"، "دير سريان"، "علمان الشومرية"، وقبلة المجاهدين، يودِّع النهرُ ثلَّةً منتظراً عودتهم، حاملين تباشير النصر وجراحاتٍ ووعداً مؤكَّداً بالحرية، ومن الغرب تزحف "زوطر الشرقية" معاندة مجرى النهر، ليرميا معاً أطرافهما في لجين الليطاني، ويستطيب اللقاء عند الأصيل.

نتيجة لعاملَين في تكوين المنبعِث من رحم يُحْمُر، الأول: البساطة في العيش وحبُّ التواضع، والثاني: كرهٌ مزمنٌ لزهو الزعامات التقليدية وغير التقليدية، لا يتباهى أحدٌ بذكرِ اسمه، لئلا يُتَّهم بالاستئثار والخروج عمَّا هو مألوف لديهم.

لكن واجب الأمانة يقتضي أن نسجِّلَ لأبنائنا بعضاً من فصول مرحلة عايشناها بكل لحظاتها، ليستنيروا وينيروا، ولنشهد وليشهدوا، أنَّ العزم في العمل والإيمان بالله، يحتِّمان الفوز في نهاية المطاف، إذاً فلا بدّ من تسجيل بعض البصمات الحيّة أبداً، مع الاعتذار مقدَّماً من أسماء أصحابها..

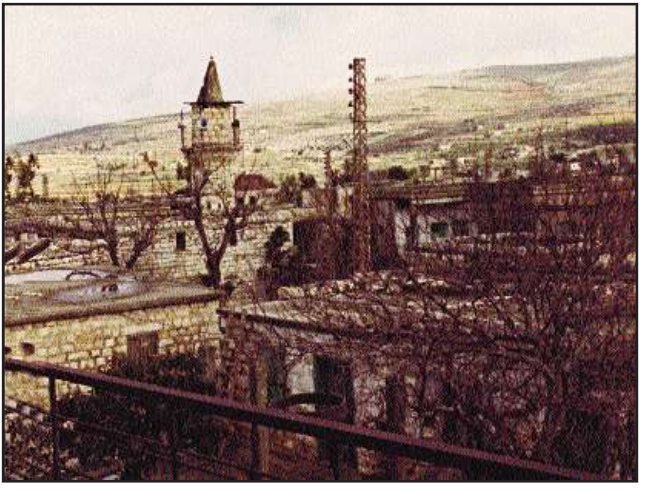

يحمر ١٩٧١

يُحْمُر الشقيف تشابه كل البلدات العاملية - باستثناء بعض التفاصيل- تحاول التقدّم باتجاهها، تمرُّ قسراً مطمئناً عبر عاشوراء الانتفاضة في "النبطية"، فينبري صوت "جودت" يلعن قتلة الأنبياء، أصحاب القلوب القاسية، مع ثلةٍ من أبناءِ البلدةِ وجمهور آخر من المؤمنين الذين عشقوا لحنَ التحام السّيوف..

تُغبط بالمشهد..!

النبطية استحضرتْ لك أرض الطف، وبسطت أمامك مئات من السنين بلحظات، دم الحسين ينتصر على السيوف المستبدَّة الظالمة..

رائحة المسك تجذبك معها على طريق "كفرتبنيت"، عن يسارك "تلة الدبشة" وبصمات التحدّي، ثم "جبل علي الطاهر"، وهو أشهر من نارٍ على علم، تحطُّ رحالك بجانب الطريق العام، فالمشهد من هنا مختلف، إسماعيل كان نبيّاً، وإسماعيل يُحْمُر صدّيقاً وفيّاً، فتحدّق بالموقعِ مليّاً ..

علامات الدَّهشة تبدو عليك، فدراستك الجامعية لم تكن كليةً حربيةً أو معهداً للعلوم العسكرية، لكن فطرتك تتساءل، كيف اقتحم "إسماعيل" وإخوانه هذا البرج الحصين في أعلى الجبل..؟ كيف صعدوا..؟ كيف دمَّروا..؟ وكيف خرجوا..؟

وبينما أنت في حيرتك واضطرابك، تسمع صوتاً يهمس في أذنك: (مَنْ يملك إيمان "إسماعيل" وعزيمته يجد طريقاً إلى النصر).

تتلفَّت يميناً ويساراً، يعاودك الصَّوت قائلاً : (سأقصُّ عليك كلّ الرواية لأخفِّف عنك وطأة الأمر :

(عند تلك الشجرة أسفل السفح، مجموعة استشهادية، صلَّينا الصبح، وانطلقنا باتجاه الموقع تتقدمنا ثقة "إسماعيل"، وبصرخة "الله أكبر" منه، أتبعَها غضبَهُ والرَّصاصة الأولى، دوَّت صرخات التكبير معلنةً تحرير الموقع، وبدقائق محسوبة، بدأنا الانسحاب مدجَّجين بالنصر والاطمئنان، وعندما وصلنا إلى ذاك المنزل، انهالت علينا القذائف المسمارية المحرَّمة، فحملني "إسماعيل" جريحاً بإصابتين حتى تلك الصخرة، ومن هناك حملته شهيداً ليدفن في يُحْمُر كما وصيَّته..)

قلت للصوت: (بربك "أبا ساجد"، أخبرني عن وجعك، عن الجراح)، فقال: (انظر إلى يمينك تَرَ ورداً ريَّانة من دمي، وهناك قصَّة أخرى مع الجراح سأرويها لك لاحقاً، فأنا الآن مشغول بجلسةٍ طارئةٍ مع شهيدَين سقطا للتوّ).

تضع رأسك على مقود السيارة، وعندما تصحو من غفوتك تتابع المسير..

يشدُّك الشوق جنوباً لتجد "أرنون" فاتحةً ذراعيها للزائرين، وهي القابعة في فم الغول، لم يستطع ابتلاعها، وشراهته منعته من التخلّي عنها، وبِرْكَةٌ للمياه المتجمّعة من الغيث، حكايات الانتصار والدم والمعاناة، الشهداء والأسرى، النسوة اللواتي ولدن أجنتهن أحياءً حيناً وضحايا في أغلب الأحيان، دم "رفعت" لا يزال شاهداً، وقهر أهالي البلدة.. شريطٌ سريعٌ حافلٌ بالمآسي..

إنَّه الممرُّ الإلزامي الوحيد إلى يُحْمُر...

عددٌ كبيرٌ من الأسرى اقتيدوا، لا تزال البِرْكَةُ تعرف قسماتهم فرداً فرداً، وعذابات الطلاب العابرين، أيّامُ الدِّراسةِ التي استطاعوا متابعتها معدودةٌ كما سكّان بلدة أرنون، قلّة من الشيوخ والنساء، يتساوون تقريباً مع عدد الحصارات التي فُرضت على يُحْمُر خلال كابوس الاحتلال، أسلاكٌ شائكةٌ حاول المحتلُّ غرسها في قلب الأرض وقلوب الناس..

أهالي يُحْمُر كلّهم دون تسمية أو تعداد، تربطهم بالبِرْكةِ وجوارها أحاسيس متناقضة جمَّة، لهذا المكان مهابة خاصة في ذاكرتهم، كما للأمكنة مهابة في ذاكرة الزمن، هنا أوقَف حاجزٌ طيَّار "أنور زهور" سبع ساعات تحت المطر، ثم "خيَّم" مع الأبطال عقداً من الزمن، وهناك

صرخت "أم محمد" بوجههم عندما سرقوا إسوارتها الوحيدة، التي رافقت معصمها منذ خطبها "أبو محمَّد" قبل ثلاثين عاماً ونيِّف.

في تلك البقعة أوقَفوا الطلاب يوماً كاملاً، لا بل أياماً يتعلَّمون فنَّ الغضب، هنا بالضبط استشهد "رفعت"، وهذه البقع الحمراء تأبى أن تزول عن الصخرة المغروسة عميقاً، وإلى الأمام قليلاً عند تلك الحفرة تماماً، انفجر قلب "كمال" بآليات العدو التي كانت تحاول الصعود إلى القلعة، لا يزال دخان عبوَته يطيِّب خاطر أمهات الشهداء عند مرورهن، وخلف تلك الزيتونات المكان الأنسب لمراقبة حركات الغول، يهمس أحد الفتية.

عند الحاجز الترابي هناك، وقف "فارس الشمال" علي غازي طالب[1]. ثمَّ ألقى نظرةً على الدورية القادمة، ردَّد كلماته الأخيرة رسالة عشق إلى "عروس الجنوب" سناء محيدلي[2]، متمنياً أن ترسلها إلى كلِّ الاستشهاديين الذين سبقوه، "أحمد قصير"[3]، "بلال فحص"[4]، "لولا عبود"[5] والقافلة تطول .....

وعند وصول الموكب الصهيوني، فجَّر "عليّ" سيارته وحقَّق أمنيته: "أن يتناثرَ الجسدُ بوجهِ المحتلِّ الغاصب".

يهوى "علي إسماعيل عليق" القلعة الإطلالة، قبل أن يولد، من أعلاها يسرِّح نظره فوق المدى، وها هم الجنود يعتقلون كلَّ المدى...

(١) علي غازي طالب «فارس الشمال» من منطقة عكّار في أقصى الشمال اللبناني، نفّذ عمليّةً استشهاديّة بدوريّة صهيونيّة عند بركة أرنون بتاريخ ٣١ /١٩٨٥/٧ أدّت إلى وقوع عدد من الإصابات في صفوفهم.

(٢) سناء محيدلي «عروس الجنوب»، أوّل عمليّة استشهاديّة تنفّذها فتاة ضدّ قوات الاحتلال في الجنوب اللبناني، اختارت بوّابة الآلام عند معبر باتر-جزّين مكاناً تفجّر غضبها فيه، وذلك بتاريخ ٩ /٤ / ١٩٨٥.

(٣) أحمد قصير «حيدر»، عمليّته كانت أولى العمليات الاستشهادية في لبنان (١١ / ١١ / ١٩٨٢)، نفَّذها بعد خمسة أشهر فقط من اجتياح ١٩٨٢، فجّر نفسه بسيّارةٍ تحمل مئات الكيلوغرامات من الموادّ المتفجّرة في مقرّ الحاكم العسكريّ الصهيونيّ بمدينة صور، وكان هذا المركز الهامّ يتألّف من ثماني طبقات دُمِّرت تدميراً كاملاً، أسفرت العملية عن مقتل ١٤١ ضابطاً وجنديّاً.

(٤) بلال فحص «عريس الجنوب» بتاريخ (١٦ / ٦ /١٩٨٤) اقتحم بسيّارته المحمَّلة بالمتفجرات رتلاً من الآليّات الصهيونيّة بالقرب من مصفاة الزهراني، اعترف العدوّ بسقوط عشرين بين قتيل وجريح.

(٥) لولاّ الياس عبّود «عروس البقاع» بتاريخ ٢١ / ٤ / ١٩٨٥ نفّذت عمليّتها الاستشهاديّة في منطقة القرعون، أدّت إلى إلحاق العديد من الإصابات في صفوف العدو.

كـبُـر "عـلـيّ" عـمـراً كـامـلاً لـغـزارة الأحـداث ورهـافـة الحس، يفتش في كلّ التلال والهضاب علّه يرى المشهد ذاته، يأنس لارتفاع "سجد"، يرابط هناك للصيد أياماً وشهوراً، يصعد "الإقليم"، فالصعود دائماً هوايته، يجد عدوَّ الله يعتقل رؤوس الجبال هناك، استنفر غضبه فاستطاع تحرير تلّةٍ استهوَتْ خياله، سرَّح عينيه في الآفاق، المدى جميلٌ لكن ليس كما القلعة، رجع "عليّ" إلى حيث العَودُ أحمدُ، ومطمئن البال أطلق قرار اللاعودة: لن يغادر القلعة حتى تطهيرها والمحيط..!

هجوم على "الدبشة"، لا بأس، عبوة عند "الخردلي" تريح القلب، لكن القلعة هواه، كذلك جاءته طفلاً رؤيا في الأحلام، طاف الحقول مودّعاً ورودها والأشواك، امتشق قلبه والحنين، ومضى إلى عشقه، قصد أقحوانته المعلّقة على جدار القلعة، ليمدَّها بأسباب الحياة، وهناك فجَّر نفسه بالغزاة المتربصين..

وقبل انبلاج الصبح، قُبيل وصول دباباتهم، سرى دمه نحو النهر..

عند البِركة تلك، مواجع الألم الإنسانيّ حطَّت رحالها، تراها عيناك كما الكرة الأرضية رغم صغرها، تتلمَّس كلَّ أساليب التعذيب النفسي حولها، ترى كل

أطياف القهر والعزيمة بوضوح لا نظير له، تقطع تلك البقعة، وأزيز رصاصهم يملأ السماء فوق رأسك، رائحة البارود تزكم أنفك، ووجوه مقيتة تخدش كل جوارحك، وتستمر بالمسير.

دقيقتان فقط تفصلك عن أول المنازل المزروعة في يُحْمُر، والتي تتناثر على جانبَي الطريق لمسافة تتجاوز الخمسة كيلو مترات، تختلف الرؤية تماماً، بدأت تلمح أشياء أخرى..

مساحات شاسعة (٣٢٠٠ دونماً)، مجموعة من الهضاب تختبئ خلفها مجموعة من الوهاد، سهول تزدان بألوان بهية حمراء، خضراء، صفراء، ألوان لا تعرفها من قبل، ولم ترَ عيناك مثيلاً لها، جمال آسر تقول في نفسك..

تمعن النظر غرباً، يستوقفك ضياء يتّسع ليبلغ الآفاق، تشتمُّ شذا عبير القُنْدُول المتزاحم على السفوح، يختلط العطر والنور بتفتّح الأقحوان، يُطرب أسماعك انتفاض ينابيعها المتّشحة بلون الدم وعرق المجاهدين الصابرين، فتزهو الأرض بفيضها، ويتراقص الليطاني طرباً..

يمدُّ النهر ذراعيه ليحتضن البلدة، موزعاً عطاءاته إلى الحقول التي كحَّلت عيون الشرفاء، ووهبتهم الفقر والحرمان والصلابة والوفاء، تاركاً للشمال "مزرعة الحمراء"

وممراً إلزامياً للبلدة عبر "أرنون" الأسلاك الشائكة، التي جرفتها الحشود وصفعت بها وجه المحتل القميء.

خلف السُّهول والوهاد والتلال يجذب نظرك وادٍ سحيق، إنه الليطاني العظيم، هبة الله لعاملة، يتقاسم والقلعة الروحَ في نفوس أهل يُحْمُر. فالقلعة والنهر صنوان، أكسبا سفوحها أبهى الحلل، هما ركنان لا تستوي الشخصية بدونهما..

علاقة غزلية تربط تلك البلدة والنهر، انظروا خارطة مسيره، تأمَّلوا كيف جذبت يُحْمُر العاشق الولهان، فاتَّخذ قراره الأزلي، وغيَّر مجراه بمنعطفٍ قائم، فتحوَّل بقربها تماماً نحو الغرب، لكي يؤمِّن احتضانها بقوَّة من جهاتٍ ثلاث..

يحدِّد النهر مجراه معانقاً البلدة، وواثق الخطى يسير غير عابئ بكلِّ العوائق، يفصل البلدة عن كل ما عداها، فالمُلْكيةُ في الحبِّ فلسفةٌ ليست طارئةً في شرقِنا البدوي، تنتقل عبر خلايانا منذ عنترة عبلة وجميل بثينة وكثيِّر عزّة..

يتمايل العاشقان ويتداخلان، فترتسم لوحةُ وَجْدٍ صُوفيّة.. ولا أبهى، عُجنتْ بألوانٍ ربانية، وجُبلت بطينٍ لا تستطيع البشرية إليه سبيلاً، تعوم يُحْمُر على المياه، والماء

عزيز لا يصلها، تريد القول للعواذل: ما يجمعني والنهر، حبٌّ عذريٌّ ليس إلاَّ..!

النهر ملتقى لجميع الأبناء، النسوة يغسلن، والرجال لجلب الحطب، والفتية يلهون بالسباحة، وينقل الجميع الماء من النهر صعوداً إلى البلدة، مسافة تزيد عن ثلاثة كيلومترات عبر الجبال والمرتفعات الحادَّة، والليطاني يزنّر البلدة..!؟

يكتملُ المشهدُ الحقيقي في يُحْمُر، باصطفاف شتلات التبغ بانتظامٍ في حواكيرها، مرٌّ يطفو على مرارة إحساسهم بالإهمال والتهميش عبر العهود والعقود المتتالية، شتلات التبغ ليست الشاهد الأوحد..

يُحْمُر كمثيلاتها من هذه القرى المنسيَّة، تعيش بصمتٍ ويتكاثر أهلها، فيولدون ويموتون ضمن مساحة عيونهم والأحلام، لا يغادرون إلاَّ لسبب غير اعتيادي، قلَّما يمر، وتبقى كما زميلاتها حتى منتصف القرن الماضي لتتمكَّن من التواصل مع ما يسمى بركب الحضارة..

تُذهلكَ زهرة التبغ الخلابة، كنتَ تلعق مرارتها وقسوة الحياة، لعنتَ صُحبتها المفروضة على طفولتك ألف مرَّة، ولم تتذوَّق لحظةً كلّ هذا الجمال في أزاهيرها..

فجأةً يقطع سكونك أزيز رصاص، تقفز مهرولاً

علَّك تعرف الباعث والاتجاه..! فإذا هي طلقات موت تنبعث من القلعة، إنهم لمحوا طيراً أخافهم، أو لعلَّهم لاحظوا طيف "عليّ" يلاحق خبث قسماتهم، بل ربما أحسوا بنبض "كمال" فخافوا أن تدركهم بندقيتُهُ معيدةً بهم الذكرى إلى أيام الحصاد، أو لربما تراءت لهم بسمة "أبي مصطفى"، وتحسّسوا الثقة فيها، فخجلوا من جبنهم وأطلقوا الرصاص ليستتروا خلف لهبه ودخانه..

يشمئز الليطاني مستنكراً...

خرير مياهه يداعب أعمق أسماعك والعواطف، الصيف المثقل يقضيه الفتية وموسم التبغ، وعشق للنهر، وجوع تتحسّسه الأمعاء في أغلب الأحيان، فتتلوّى ألماً، جوعاً، غضباً..

العمل اليوميّ يطغى على كل التفاصيل الأخرى، طفولةٌ تمضغ التراب مجبولاً بلقمة نظيفة جهّزتها الأمهات، أو لم تستطع كما في كثير من الأوقات، ووالدٌ يبحث عن مستقبلٍ في غمرة الضباب وتنوّع الزعامات وشدّة استهتارها، ثمّة طموحٌ يدغدغ روحه، حلمٌ كبيرٌ بحجم الحزن المترامي على جنبات البيوت، وجسدٌ مهشّمٌ مثقلٌ بالهموم، وجراح الفقر وأثلام البؤس، وثمن الصدق والوعي أيضاً.

قصص الأمهات، وسنديانة ترتعش أغصانها مع بزوغ الفجر لتداعب أوراقها، صبرها كصبر النساء في بلدتي..

العمل بدائي، والغسّالة يدوية، والمِكنسة صناعة محلية، وجلي الأواني بإبريق البلاستيك، فالمجلى من صفات الأغنياء المبذرين، والحطب أكثر أماناً من قوارير الغاز..

هنَّ يعِشن إنسانيّتهن من خلال تنوّع الأشكال والألوان لدى هذا الكمّ من الأطفال، واختلاف صنوف الهمّ والكدْح، فلا وقت للمجاهرة بالأحاسيس والحاجات.

جميعهنّ يعملن بنفس الطريقة ويعشن بهذا الحجم من الصبر والكد، أوقات فرحهنّ القليلة تُصحب بخوفٍ دائمٍ ممَّا هو آت..

وأملٌ بالله مستمر..

ذرّات الثرى لم تعد تمثّل التراب المعتاد، أصبحت صفحة الأرض ثابتة بوجه الريح، لا تسحقها أقدام ولا تجرفها سيول، لا تفتّتها عواصف ولا يهدّها مطر، هي الأرض التي تعلن وجودها بالعطاء والصمود، هي الطّين الذي جُبِلَ منه الأنبياء والشهداء.

يتساقط المجاهدون والبسمة تعلو ثغورهم، اللون القاني يطفو ويغسل تلك السفوح، فيستعيد الصخر حلّته، والنجوم تحطُّ رحالها وتفترش الحقول باستمرار، كي تحفظ لهذا الدم قدسيته التي يختزنها، وتستريح..

تنتفض مياه الينابيع الموزّعة على تلك السفوح، تتعالى مداعبةً حفافي الصخر، شلالات تتوالد روافد، والنهر يمتدّ ليناغي جذور الأشجار وهديل الحمام المعشعش في مسجد "إبراهيم الخليل"، ثمَّ يعود فيرتد، تحاول الجذور اللحاق به لكنها تعود، إذ كيف لها أن ترتوي والبلدة عطشى منذ ثلاثة عقود؟

يا للغربة والغرابة في وطن، قرية فيه، يحملها الماء والظمأ يخنقها..!

تكلّل الينابيع الصخور كما العرائس في بلادي، تبتسم الشجيرات حينها وترى في السَّراب حقيقةً تتلمّسها، فتحقّق مبتغاها، تشمخ لأعلى التلّ لتحاكي

أشجار اللوز الزاهية من حولها، تُودِع أشجار الخُرُّوب بعض الأسرار، ويتهامسون قصص الراحلين، والذين في الانتظار، يشكّلون بتوحّدهم ملاذاً آمناً للعابرين الثائرين..

يقتلني عشقي لحكايا الصَّيف المخبَّأة في كوز رمان، حفر عليه صديق ارتقى، أصدق رمز لأول حُبٍّ دغدغ خلاياه..

تعبق المروج برائحة الطّيب الفوّاح، تتراقص العصافير طرباً وتتعالى زقزقتها، فيطغى شدوها على الأصوات المنبعثة من خلف الشريط الشائك، أرادوه خنجراً في قلب الوطن يقطّع أوصال الأرض الملتحمة، فوقف البيلسان عصيًّا، يشدُّ الطيُّون أزره، تكلّله تيجان الدحنون فخراً واعتزازاً..

في شموخ جبالنا يكمن سمو العظمة، وفي امتداد سهولنا كبرياء التواضع، وفي دفق ينابيعنا عزمة العطاء، وفي قبضات رجالنا ديمومة الحياة، وفي صرخات نسائنا قوة الرفض..

أربعة آلاف وخمسمائة حكاية، نهارهم يمتدّ حتى الفجر، ليلهم حلمٌ حسينيٌّ يلملم المأساة ليقذف بها القدر، يعملون طوال العام ليباع المحصول بتكلفته، ويبقى جهدهم هبةً لأصحاب المعالي، سياسةٌ إقطاعيةٌ فرضتْ عليهم التسابق مع لقمة العيش، زعامات تحكّمت

بالمنطقة ولا تزال منذ بدايات القرن الماضي، تريد ربط مستقبلهم بأذيالها، همٌّ متواصلٌ، وصبٌر جميلٌ على البلاء، وأملٌ بالله مستمر..

سنابل القمح في بلادي أبت إلاّ أن تحمل مائة حبة، لتنحني حُبّاً وتواضعاً لتربتها الحمراء، التي أكسبت البلدة اسمها -كما يزعم بعضهم- لكن معظم الأهالي يعتقدون أن اسمها يعود لغزال اليحمور الذي كان يعيش في أحراشها، واليحمور: الأحمر، والغزال القصير الذنب.

أربعمائة وخمسون بيتاً عتيقاً تحتضن مسجداً يلفّها بنوره الإلهي، يحاكي حمرة الشفق، وشغاف القلب، وتلك الوجوه المتوقّدة دوماً، اللون الكربلائي يطغى على كلّ الأشياء، علّمتني يُحْمُر أن الأحمر أشرف الألوان..!

البلدة تجتمع حول المسجد، والشراكة بين أهلها حقيقة راسخة، والألفة تحكم العلاقات، رغيف الخبز للجميع، وسقف المنزل تجتمع لبنائه كلّ السّواعد، والأعراس أفراح حقيقية.

يجذبك جمالها، تتراكض الأفكار في خلدك، هل تبدأ رحلة التعرّف إليها من الشمال، تسأل نفسك ذاتها؟ أم من الشرق؟ أو .... ربما تبدأ من أول البلدة عند الشاخصة الرسمية، تقف، تتأمّل، تسحرك لوحة المغيب، يحتجُّ

القلمُ لتردّدك، فهو يستعجل الوصول كعشقك، وهيهات للعشق أن يعترف بالحدود...

حطّ في القلب، فما عليك سوى الوصول، هيامك هو باعث ارتحالك، وقلب الدنيا ينبض هناك، مئذنة تعشق ترتيلها، وزاوية ولدتك أمك قسراً فيها، لم تتزحزح رغم هذه السنين، توزّع أنظار الشوق في كلِّ اتجاه، ضجيج السيارات، أطفال يتقاطرون جيئةً وذهاباً يملأون الجوار صخباً وصراخاً، أحبة يتوزعون أماكنهم في دور عتيقة، عاثت القذائف بأسقفها وجدرانها.

منذ النكبة وبلدتك كما كلّ البلدات الجنوبية، تفتح ذراعيها للقادمين، أحزاب بدأت نظيفة وتهجّنت، كثيرون ثبتوا على المبادئ وقليلون باعوا واشتروا، آليات عسكرية زائرة تبدّلت وجهتها واختلف الهدف، أنظمة عميلة وأخرى مرتهنة، جيوش عبَرتْ، وأخرى عبَّرتْ وارتحلتْ، فكانت جدران منازلنا تتهاوى مع تهاوي كل هذه الأشياء، فتحوَّلت نوافذ للشمس وممرات تصل البيوت ببعضها، وشهداء من البلدة قضَوا في كل المراحل..

رائحة الأرض الطيّبة تنبعث مع زخّات المطر الأولى، امرأة تسير على الطريق، تمثّلت كل التجاعيد على وجنتيها، انطبعت كالهمّ الذي عايشها، صدفة..! ربما لا..؟

فولادتها وترعرعها يسكنان هنا، كما الحرمان والفقر، عايشتهما كما النسوة في بلادي كتلازم الروح والجسد، حفرا تلك الأخاديد وزادها عمقاً واتساعاً إذلال المحتل، فانحنى ظهرها وتشظّى القلب...

أريج حنين يأخذك ناحية "المعصرة"، صُحبةٌ متينةٌ مع الصخور المزروعة هناك، وادٍ سحيق والنهر قسيمُ الوجه، تُحيّيه فيردُّ بأحسن منك، تنطُّ من صخرة إلى صخرة، والنهر يبتسم للولد الذي عاد، فكرة لم تأتِك صغيراً، تتجمَّد لها قدماك، ويشدُّ وجهك عضلاته، كيف لي أن أتعالى على النهر من هذا الموقع؟

لا يتحرَّك جسدك إلاَّ نزولاً، تندفع وعيناك على النهر، أشواك وحجارة اشتاقت لأخمص قدميك، إنَّه الوجع الطيِّب..

تصلُ النهرَ بذات السرعة السابقة، تُداعب يديك بخيره، تبارك وجهك بقبضة منه، ترتاح نفسك من التعب ويزول إحساس الزهو الطارئ..

عاشقان تسيران معاً، تظلِّلكما أشجار الصفصاف المترامية، وشجيرات الدفلى كصفَّي عسكر يمتدَّان إلى بحر "صور".

تصل "غدير ياسمين" وأنتَ لا تدري، تتأمَّلُ النهرَ السَّاكن في

هذا الفصل من كتاب الخير، فتطمئن نفسك لهدوئه، إنَّه ليس بعاتب، تشعل "سيجارة" وتراقب وجه الماء، تبدو لك كلمات بالأحمر كُتبت:

"هوِّن الأمر عليك، أنا وأنت والقلعة، كلٌّ منا له موقعه الجدلي، أنا والقلعة خُلقنا لنمدَّك بنسغ الحياة، أنا أحرس هذا الوادي الطويل، والقلعة في الأعالي تحميكَ من غيلان السماء، أبعِدْ أفكارك الغريبة عن علاقتنا، واصعدْ إلى بيتك، علِّم أطفالك كيف يعتصمون بجدرانه، فإنْ تأخرتَ سينهار عليك وعليهم، فيختلُّ ميزان هذا الثالوث"..!

نهر الليطاني بين بلدتَي دير سريان ويحمر « المعصرة »

تحتسي قهوتك تحت شجرة السَّرو التي افتدتْكَ يوماً، حضنتْ قذيفةً لتَحميك، يشاركُكَ أبٌ عصَرَ الأيام لتنبتَ المواسم التي يُريد، تحضر امرأةٌ من أترابِك، تجرُّ خلفها رتلاً من الأطفال، تتذكَّر أنكما تعرَّفتما سوياً على مقاعد الدراسة، تُعيدان ذكريات الأيام الغابرة، لحظة سكونٍ تضحكان معاً دون كلام، يستوضحُ الوالدُ السببَ ولا جواب، الصمتُ أحياناً كثيرة أبلغ من كلِّ الكلمات، تذكَّرتما معاً ذلك الولد الذي أعجبه وجه تلك البنت، أباح لها بما يرى في عينيها من بهاء، بادلته الشعور وانسلَّت بحياء..

تعود طفلاً يحبو على حوافي المصاطب وأطراف الأحاديث، الحاج جميل داود، الحاج صادق، أبو حسين مرعي، أبو محمد حسن، السيِّد أبو عارف، الحاج عبد، الحاج أبو أحمد، الحاج يوسف مرعي، حسن الجوني، الحاج خليل، أبو حسين علي ريحان، الحاج حسين سعيِّد، أبو محمود، علي حسين، محمود يوسف، حبيب أحمد، خليل محمود...

حلقةٌ من سلسلة مجموعات، منذ غابر زمن رحلوا جميعاً وما رحلوا، دكَّان "أبي حبيب" حيٌّ ينبش الذاكرة، وللصور قسمات فيها كلّ المعاني..

يصرخ "أبو حسين مرعي" وعيونه إلى السماء

"كذّابين.. كذّابين" يُطفئ المذياچ ويرميه لصاحب الدكّان، كلّ العيون ترنو إلى "أبي حسين" باستفهام، (يا جماعة ألم تسمعوا ما قال هذا المذياچ اللعين..؟؟

"يدّعي" أن مركبة فضائية هبطت على سطح القمر، انظروا، فالقمر واضح، وما مِن مركبةٍ ولا مِن بشرٍ "ولا مَنْ يحزنون").

يُتمتمُ أثناء انتقاله إلى موقعٍ آخر "مركبة قال..!؟" ومن تحت نخلة "الحاج ناصر" يعاود النظر ثانية، تبتسمُ كطفلٍ يحبو لهذه اللّفتة العذبة من ذاكرتك...

بينما تعيش لحظات التأمّل تلك، ترسل نجمة بعضاً من ضوئها في وضح النهار، تخترق فجوة صغيرة أحدثتها رصاصة في أعلى الجدار، تجاوز نورها كل المسافات وآثرت الجلوس معك، فيكتمل النصاب، كتلٌ بشريةٌ تغطي أرض المنزل، تبدو للناظر لآلئ جُبلت مع أديم الأرض، أعطته شكلاً هندسياً يحلو إليه النظر، ألوان مختلفة ويطغى السواد، وقلوب تنبض أملاً بالحياة..

تُحضِر والدتك كأس الحليب الطبيعي، وكالعادة تتناول فطورك في غمرة الضجيج، بين جموعٍ متصارعةٍ على كعكةٍ سمراء أو شقراء، زوايا الدار تهتزُّ لكثرة المجتمعين، مشهدٌ يضفي على تلك الناحية من قلبِ

البلدةِ بُعداً آخر لمعاني الحياة، الحركة عادت إلى هذا المنزل المسكون حيناً والمهجور في أغلب الأحيان..

يُحْمُر، يهجرها الحنين من الباب، ليتسلّق إليها من الشرفات، يدخل عبر جميع النوافذ المشرَّعة لأنفاس الصباح، أناشيد القمر، مواويل الحصادين، مزامير الرعاة، جدرانها مختزلة لا يمكن للزائر أن يتربّع خلفها، والقُنْدُول يرصّع السفوح، والزيت يعتصر من زيتونها، والشمس تستأذن الدخول وتأبى المغادرة..

أنت العاشق القادم من الشرفات المطلّة على الأحداث، تقصد الاستجمام وإشباع الرغبة، اضطرابٌ يغزوك، الشوق يملأ كيانك لأحبَّةٍ استودعوا الجمالَ أمتع الذكريات، وحادثوا الأغصان في أحلى القصص، تألّموا معاً وسهروا معاً يترقبون الأعداء، قضَوا ولم تستطع توديعهم..

تخجل من زيتونةٍ داعبَتْكَ صغيراً ولم تحافظ عليها يوم كبِرت، تركتَها لشظاياهم وحيدةً وابتعدت، يحملُكَ الحياءُ طيراً إليها في "شرابيك" يُحْمُر، تجد جذعاً له فرعان كعلامة نصر، لكلٍّ منهما كتيبةٌ من البراعم، تخطبُ بضع كلمات متلعثمة والشجرات المجاورة جمهُورك:

(زَرَعْتُها بيدي وترعرعَ معها الجسد، ارتحلتُ وصمَدَتْ.

صدَّتْ قذيفتين عن مجموعةٍ مقاوِمة ولم تسقط، ارتَوتْ بأنفاسِ شهيدٍ وهبَها دمَه، لم تخجلْ من عُريها كالبشر، بعد عامين أتى نوَّار فجدَّدَ لها البراعم).

لم تتفوَّه الشجرات ولم تكترث، لكنَّ البراعمَ قاطعَتْ خطابَك، وأطلقتْ عتابها رصاصاً اخترق العظمَ منك:

(تتكلَّمُ كالزَّعيم الذي زارني بعد القصف، أنتَ المجبول من ذات الطين، رحلتَ عني وعن أرضِك، تؤمِنُ بأنَّ الفقرَ في الوطن غربة، والغنى في الغربة وطن، هاجرتَ كما السنونو، ارتحلتَ ولم تعثر على وطنك بعد..!).

تداعبُ النسيمات وجنتَيك وأنتَ تنطلق في روابيها، تتنشّق ما طاب لكَ من هوائها العليل، تستدرجك طرقها الضيقة المتصلة ببعضها، كاتصال الشرايين بأوردتها عبر خيط رفيع..

يشدُّك الغرب لتقطع الطريق على الشمس كي تستأخر الغروب، ينبلج البحر الساكن أسفلها بخشوع، تطفو بسمةٌ تعلو شفاهاً ناعمة، تتناغم مع الأمواج لتبادلك التحية المنبعثة من القلب، إلى شلال الدم الذي أودعه "أبو مصطفى" في عمق البحر..

عالمٌ سحريٌّ اكتمل، نهرٌ وقلعة، بحرٌ وزنبقة، نورسٌ ومرجانة، وبندقية شهيد...!

تبقى محدقاً، تمجّد الخالق، تنساب الصورة وتتراقص خلف الأمواج آخذة شكل فلسطين شراعاً، والبسمة تعلو الموج لتطفئ ظمأ الشوق لعيني "أبي مصطفى"، فتتجمّد الدمعة في عينيك..

نرجسةٌ انبثقت من بين مفاصل صخرة تسكن أقصى غرب البلدة، تبعث مع النسائم عبيرها الممزوج بأريج طهر الدماء التي سفكت، يتقلّب لون وجهك من الخجل والخشوع، تنحني إجلالاً وتعود لتقلّب الطرقات بحثاً عن رفيق فوق الثرى.

تتراءى لك صورة "رفعت"، بل وجه الكلّ ترى عيناك، صورة جماعية تشدُّك إليها صوب الجدار، تنظر أعلى شجرة السرو فتراها أيضاً ترتسم هناك، كيفما نظرت تجدهم مجتمعين، تفرك عينيك ويأخذ البصر برأسك نحو قبة السماء، فتجد أطيافاً نورانية ترفرف فوق يُحْمُر..

يعيدك المشهد إلى أيامٍ خلت، ولم يبقَ سوى الذكرى، هؤلاء هم الذين أودعوا كلّ ذرّة من التراب أحاديثهم الزاخرة بالرجولة والفداء، وجُيعهم الزاكي هو الذي وهبه شرف الطُّهر والقداسة..

تكبر الأحاديث، وتتنامى الذرّات بتراكم القصص وتقلّب الأيام، فكيف لك أن تختصر عظمة جيل بهذه الرحلة القصيرة العابرة..؟ وبضع كلمات..؟ وكل هذا الحنين..؟!

قصص الشهداء في بلدتي، البيادر والطرقات.. شجيرات الزعرور.. حبات التراب القاني.. حكايات الجهاد.. أمسيات الربيع الناعسة.. ليالي كوانين التي أودعوها دفء قلوبهم وأنفاسهم.. أزيز رصاصهم المدوّي..

تستنهض عشقك المتفجّر أبداً وأنت تُبحر في عظمتهم، تُلملم ما تيسّر لك من رحابة المنازل المسكونة بالحبّ والشهادة، وزوّادة أحضرتها "الحاجة فاطمة" لولديها

"يوسف ونزيه"، فقتلهما الذئب، ولم يرجعا، لا يزالان يؤذنان في كنائس "ديرميماس" حيَّ على الجهاد، وعرائش تعلّم الأطفال في بلدتي القفزَ مذ تدلّت عناقيدها الحمراء، واعتادت النضوج قبل أوانها لتلبّي رغبة جيل جديد..

يصعب لَمُّ شمل المفردات المنسجمة عبر هذه الرحلة، لفَيض المشاعر وغزارة الأحداث، وأصعب ما في الأمر، الكتابة عن "الحاجة فاطمة"، فهي بذاتها حكاية طويلة، تختزل كلَّ القصص وتختصر كلَّ الأمهات، منذ بداية الصراع في هذا الجنوب الأشمّ، قلبها يزخر بالمعجزات..

أيتها المجاهدة المقاوِمة في السبعين..!

يتيه قلمي ويضعف أمام أبجديتك، لا تشبهين كلّ النساء ولا يشبهك كلّ الرجال، يا وحيدة زمانِك، أنتِ مدرسة لكلّ الأجيال، اعتصمتِ بزغاريد جمَّة ليوم الحساب، وهبتِ شهيدَين في ساحات المواجهة، ولا تمانعين بنفسك وكلّ الأبناء.

دارِكِ العامرة بالحنان حوّلها إيمانك إلى مركزٍ عسكريٍّ متقدّم، بل غرفة عمليات للمقاومة بكل ما في الكلمة من معنى، أيّ قلب وهبك الخالق؟

كلُّ استشهاديّ يعبر، لا بدّ من أن تباركيه قبل الرحيل، أي اطمئنان تملكين وأنت تشاركين ولدَكِ تجاربه في

التفجير عن بُعد؟ أيّ وفاء تختزنين وأنت تضمّدين جراح المجاهدين في بيتك، تجهّزين الطعام والزاد، تساعدينهم على حمل السلاح والعتاد، وينطلقون بعد الدعاء بالتوفيق والرجوع بسلام، وساعات الانتظار ليست كباقي الساعات، وعندما يعودون تكونين الطبيبة المداوية أو تقومين برعاية الشهداء.

بعدما أدّت "الحاجة فاطمة" واجب الضيافة والدعاء لمجموعة من المجاهدين، يعود "إبراهيم الحاج علي" مستشهداً على أكفّ إخوانه، استلمته "الحاجة" وبقيت بجانبه طوال الليل حتى فترة ما بعد ظهر اليوم التالي، تبكيه أمّاً بدلاً من أمٍّ لم يصلها الخبر بعد، وتتلو الآيات مستعينة بنوره وضوء شمعة، ثمَّ يتمكن المجاهدون من إخراجه وتسليمه إلى والدته في "النبطية".. عندها أمسى دمٌ غالٍ يربط علاقة الوالدتين..

أحداث جليلة تتواصل في بيت "الحاجة فاطمة"، الجيران في البيت الملاصق ليس لهم أن يعرفوا شيئاً عمَّا يجري، بل تتظاهر بينهم كطبيعتها المعتادة، فينام المجاهدون بعد عودتهم مطمئنين، لأن "الحاجة" تؤمّن المراقبة الأمنية خصوصاً من الجهة الشرقية للمنزل، وموقع القلعة لا يبعد أكثر من خمسمائة متر.

يضجُّ بيتها بالزائرين والوافدين على الدوام، فلا تخطئ أبداً عندما تتعرض لفضولية الجيران والأقارب، أو عند مشاهدتها تشتري تموينا لا يتناسب وحالها، فهي الوحيدة الدائمة في منزلها كما الكلّ يعرف، حسّها الأمني كما يقال في لغة العسكر، جعلها موضع ثقة فريدة لدى المجاهدين..

ما أروعها وهي تدفن العبوات والسّلاح وحيدة، أحياناً في غرفة التبن وأحياناً في الأرض، لمجرّد أي تحرّك تلاحظه في موقع الأعداء القريب..

ما أبهاها وما أعظمها، وهي تتابع مع فلذة كبدها وإخوانه اضطرابهم وحيرتهم، لأمر دبابة "ميركافا" تتمركز يومياً في خراج بلدة "دير سريان"، تحاول قهر النهر من ذاك المكان..

إذاً نجحت التجربة تقول "الحاجة"، يردُّ "يوسف": ليس قبل إجراء الخطوة الأخيرة سوياً. فتذهب إلى أقصى مكان مسموح به في غربي البلدة، و"يوسف" في أقصى الشرق، فتضغط على الزر المحدَّد، فيرقص "يوسف" فرحاً..

وفي اليوم التالي أعلنت المقاومة في بيان لها: (إنها المرَّة الثانية التي يستطيع فيها المجاهدون الأبطال قهر دبابتهم "الأسطورية" على أرض الوطن، وتحديداً عند مشارف "ديرسريان"، كما قتل بداخلها ستة جنود)، تراقب

"الحاجة" سحب النار الصاعدة من الدبابة، وتطلق زغرودتها الأولى، يتقدَّم نحوها "يوسف" بلهفة الشهيد، يعانقها وتقبّله..!

بعد العشاء وتجهيز السِّلاح والدعاء، انطلق "يوسف" والمجموعة، بعد منتصف الليل وصلوا، كنتِ تعلمين بتحركاتهم لحظةً بلحظةٍ عبر جهاز الاتصال الذي بحوزتِك .

مفرق "ديرميماس" مكان الكمين، يُعلمكِ "يوسف" بقدوم رتلٍ من آلياتهم، تُصدرين أوامرك، سدِّد وإخوانك الضربة الأولى جيداً..! لا تجزع يا بُني..!

يُبقي "يوسف" الجهاز مفتوحاً، وينتظر صرخة "نزيه"، "يا محمّد"، تعيد "الحاجة" ترديدها، وصوت الرصاص يملأ المكان، تصرخ "الحاجة": الله يحميكم يا أولاد، ثم تصمت لتسمع ترانيم رصاصهم..!

يتوقَّف النبض عند الفجر، "يوسف ونزيه" ارتقيا إلى جوار ربهما، تطلق "الحاجة" زغرودتها الثانية، وتصلّي صلاة الرضا والقبول.

فقدت زهرات الدّفلى في وطني أجملها، بكتهما الحروف وأديم الأرض..

ولأنَّ إبراهيم "أبو صالح" هو الأكبر سناً، فقد خبِر

طريق ذات الشوكة، يقلّب الأودية والجبال بين راحتَيه علّها ترتاح من رجس اليهود، يمارس صلاته كل يوم في المواقع العالية من ربى عاملة، يأتيه النبأ، يصمت قليلاً والبسمة تعلو قلبه، ويردّد: لقد فزت قبلي يا "يوسف"، تمنيتُ دائماً أن تكفّنني يداك..

يأخذ "أبو صالح" القرار الأهم، فهو الذي عايش الفقر ككلّ رفاقه، تحفّز العِلم والإرادة طريقاً للخلاص، فكان المتعلّم العاشق، حدّد الهدف والمنهاج، فالدراسة الجامعية التقليدية يجب أن تتزاوج والعلوم العسكرية، فاستزاد بما يرضي الله، ثمَّ يحمل قلبه زاداً ليفرغه مع إطلالة كل صباح..

أساتذةٌ في "أنصار" وعلماءٌ لمعت أسماؤهم لعظمة "إبراهيم" والجيل الذي علّموه، نظرات القائد واثقة دوماً، ينشر الأمل فوق كل الحالمين بمستقبلٍ لا "يهود" فيه ولا شياطين..

طلّق الدنيا وآمن أن حبّها رأس كل خطيئة.

يحيي "أبو صالح" ليلة القدر بطريقته الخاصة، عملية مظفّرة يحرّر من خلالها أحبَّة معتقلين، هدية تليق بأمهات المجاهدين في عيدهن، يسري بعد مغيب الشمس بقليل، يلوّح لمسجد يُحْمُر من البعيد، يتمتم بضع كلمات

تعكس حجم الهدية التي سيقدّمها لوالدته، ويغيب..

انتفضتْ سوسنة في القلعة لاستقبال فارسها المحمَّل بالحبِّ والوصايا، نثرت أوراقها ليفترشها الحبيب الآتي مبتسماً وافياً بالوعد..

فجأة، وفي عتمة الليل الحالك يتردَّدُ صدى في الوديان، زغرودةٌ أطلقتها "الحاجة فاطمة" فاهتزَّت لها جدران المعتقل في "الخيام"، ورعشةٌ أصابت قلوب أمَّهات الأسرى، استيقظن ليشاهدن دم "إبراهيم" يتناثر في السماء، ويرتفع "أبو صالح" شهيداً..

ظلَّلته الملائكة وبكاه البيلسان..

كلّ الحبّ لك أيتها "الحاجة" الخالدة، معكِ يطولُ الحديث ولا ينتهي، أُمّاً للجميع كنتِ، طهر قلبكِ يوزّع صفاءً لكل بقاع الدنيا ولا ينضب.

أيتها الصدّيقة، أنت اختصرتِ زمنهم ليكبر زماننا، الكلُّ افتقدك قبل عام مضى، فرحمة الله عليكِ، وسلام لكِ يوم ولدتِ ويوم متِّ ويوم تبعثين حيَّة..

تبقى هائما.. تسترعيك شواهد القبور تحت أشجار الكينا، التي تنتصب بشكلٍ دائريٍّ حول الروضةالمقبرة، ونتيجة لتواصل الحياة مع المشاعر المودعة فيها اختاروا وسط البلدة لها مكاناً.

والكينا في علم الطبِّ له فوائد جمَّة، أكثرها شهرة علاج الحمّى التي تصيب الأحياء من البشر، اختاروه من بين الأشجار حول الروضة، ربما لفائدة غير مكتشفة يستفيد منها المودّعون أو الراحلون..؟

الشواهد شهود على عظمة الرجال في بلادي، تواريخ استشهاد مختلفة، منذ كان النهر والقلعة، تتزاحم الشواهد في مقبرة استودعناها كلّ الأحبَّة على مرّ العصور..

ابشري يُحْمُر وكبِّري، كلّ الشهود قد وصلوا إلى محرابك، من العهد التركي و"سفر برلك" حيث كان الأجداد الضحية، مروراً بكلِّ الحروب والمحطات والفتن، لم تبخلْ فهي الأمثولة دوماً..

دماء "أدهم خنجر" تصفعُ وجوه مؤرخي التاريخ، كما صفعت وجه المستعمر، يحاولون حجب نور عينيه عن ذاكرتنا والماضي قريب، لئلا تتواصل حلقات الزمن العاملي، لكنَّهم نسوا أو تناسَوا أن ما يُكتب بالدَّم لا يُمحى ولا

يُحجب، ويُحْمُر الطليعة تأبى إلاَّ أن يكون اثنان من بنيها قادةً للثورة آنذاك (أيوب عليق، نصرالله زهنون).

ينتصب الشهداء ثلاثة عظماء ارتفعوا عام ١٩٥٨ (محمد نايف ناصر، حسن علي عليق، نمر سليم حمود)، الأزمات تتوالى والتضحيات تكبر وتتعالى، فتجود يُحْمُر بالدم لفكِّ قيد الأرض والإنسان من نير العبودية، وتحكّم الاستعمار الإقطاعي والأجنبي، والثورة امتدَّت لتسحب الأرض من تحت أقدام الظالمين، فيسقط الشهداء، والجرحى ينقلون حكاياهم إلى مشاريع شهدائنا الأحياء، القابضين على جراحاتهم وغيظهم..

تلك هي يُحْمُر، صرخة غضب في مظاهرات التبغ والاعتصامات، أفكار الستينيات والسبعينيات غزت العقول وجالت في الحارات، لم تنسَ هذه القرية المنسيَّة قضايا الأمة، إضرابُ رفضٍ لحلفِ بغداد، مسيرةُ دعمٍ لمصر عبد الناصر، حملةُ تبّرع لثورة الجزائر..

بلدة لا يبلغ سكانها الألفي نسمة، وتربض في تلك الزاوية المهملة من زوايا الوطن، يجول أهلها جميعاً في الزواريب مطلقين صرخات الرفض والاستنكار لهزيمة العام ١٩٦٧.

وموسى الصدر سيِّداً، يزرع من منبر حسينيتها

المتواضعة بذور الرجولة الواعية، فأزهرت قلماً وبندقية، وفلسطين حاضرة قبل النكبة بزمن، فواكبت بأقصى قدرة لها كفاح هذا الشعب الذي لا يعرف قاموسه التعب، قدَّمت العديد من أبنائها قرابين في هذه المسيرة، والبيوت التي دمَّرها العدو انتقاماً لتلك المؤازرة الواجب، تأبى أن تُعمَّر حتى عودة اللاجئين إلى بيوتهم..

روح "غالب جواد زهور" ما انفكَّت تحتفل كلّ عام بنجاح عمليته داخل الأرض المسلوبة (١٩٧٠)، وزيتونة في وادي "هونين" تشبه زيتونات أبيه، أودعها الألم والدَّم والأمل، لا تزال تنتظر صهيل الخيول الذي تأخَّر طويلاً..

عرس الشهادة آنذاك محطة لا تُنسى في تاريخ يُحْمُر، أطفالٌ شيَّعوه بفخر، كذلك هامات الكبار، وقادة قبَّلوا أيدي أمٍّ أنجبت واحداً من أوائل الشهداء..

"غيفارا العرب" اسماً منهجاً اختار "موسى سعيِّد"، مدرسة ذاك الغفاري ثورةٌ تُلهب قلوب الحالمين، امتشق الحقَّ سيفاً، كأبي ذرٍّ فَعَل، يقاتل الغول الأكبر في أقصى جنوب الدنيا، لعلَّ "موسى" عثر على شجرة نسب بينهما فاستأنس قلبه، استلَّ بندقيةً ليُحرِّر الأمَّة ابتداءً من جنوب الوطن، لم يقبل الصَّمت وقبلته أصبحت دبَّابة، ومضى..

بارودته المزروعة في التل القابع أسفل جبل الشيخ (١٩٧٨) منتصبة تحدّد بوصلة الاتجاه، وجسده الطاهر بقي يرصد هناك..

بعد التحرير أعيدَ إلى بلدته، ليستريح بظلّ شجرات الكينا..

فتنٌ تلفُّ الوطن من شماله إلى جنوبه، ومن سهله إلى جبله، فيخيِّم الموت المجانيُّ في كل السَّاحات، وتنال يُحْمُر نصيبها فيسقط أخيار من شبابها ظلماً (قاسم حسين ناصر، طعان ناصر، طلال عليق، حسن علي عليق، علي محمد ناصر، علي خليل عليق، بتول جميل داود، علي حسين بركات..).

أشجار الكينا تحيط بتلك الرياض التي احتضنت أجساد الأحياء عند ربهم، ومنهم مَن فتحتْ ذراعيها ولا تزال تتشوَّق لقدومهم، وما بدَّلوا تبديلا، تبدأ البسملة وتقرأ الفاتحة، كأنك تقرأها للمرة الأولى..

زهرة التبغ

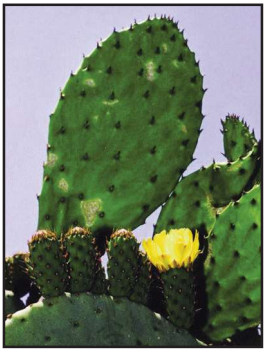

الصبّار

تهمُّ بمغادرة الروضة المقبرة، تسترعي انتباهك صورة فتاة كالبدر وجهها، شريط ذكرياتك يُعيدُك مباشرة إلى أحداث العام الماضي، الحاجز الطيَّار والبِركة و"سلام جابر"، سمّاها أهلها تيمناً بالأمان الذي لطالما حلموا به.

"سلام" كحياتها القسرية، خلال السنتين الماضيتين ولدت اثنين بولادات قيصرية، والخصب وافر في زمن الحروب، للذكور منهم النصيب الأكبر، معادلة علمية ثابتة.

ثالث أولاد "سلام" يستعدُّ للصرخة الأولى عبر نهرٍ من الدم، نزيفٌ يستدعي الانتقال إلى مستشفى "النبطية"، فالمرور إلزامي عبر "أرنون" والحاجز منذ الصباح، أعداء الله والشمس لا بدَّ لهم من التفنّن بأساليب التعذيب، أربع ساعات قضتها "سلام" داخل سيارة هناك، تختصر الوجع الإنساني منذ حوّاء إلى يومنا..

تستنفر"سلام" كل معامل الدم لديها ولا تكفي، فالمولود يدرك صعوبة الحياة قبل ولادته، إنَّ الليطاني غزيرة مياهه، تتلاشى عينا الأم، والقلب يتسارع لتأمين حاجة الصبي القادم، فهو الأمل الذي سيجيء..

لم يبقَ من الصوت سوى تمتمات لا تكاد تسمعها "أم علي"، أمُّها: (يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم..)

"يا ناس ابنتي أصابها الهذيان، إنها سكرات الموت"، يتقدّم الضابط الصهيوني نحو السيارة، فيتأكّد أن خطته قد نجحت، ثمَّ تسير السيارة نحو "النبطية" بسرعة الرصاص.

تحافظ "سلام" على خيطٍ رفيعٍ مع الحياة، فيتمكّن الأطباء من استخراج المولود مع آخر نبضة أطلقها قلبها، ثمَّ تستريح من عناء الحياة، ويطلق "إبراهيم" صرخته الأولى، يصل صداها إلى "أرنون"..

كأنَّ ثرى هذا الجنوب قلب الألم البشري، إذا ما تألّمت زهرةٌ بأرض، نزفت صخرةٌ فيه وتوجّع الأقحوان..

شدوٌ متواصلٌ يأتيك من غصن الكينا فوق رأسك، شدوٌ حزينٌ يضرب أوتار قلبك، يوقظ شرودك، تلمح أعلاك نقط دمٍ تتقاطر من بطن شحرور، تُتمتم، لعلَّه حلَّق فوق منطقةٍ محظورة، تدور بجسدك الثقيل وترمق الصورة بنظرة أسف، فترى "إبراهيم" يمسح القبر ويسقي وردة بيضاء بجانب أمه..

الأحلام الطرية في بلادي تكبر قبل الأوان..

آه ما أجمل الحكايا وما أشدّ إيلامها وأخصب أوجاعها، وهل تتّسع الذاكرة وكل أوراق الدنيا؟ وهل المداد يقدر على الاستمرار؟ هل يستطيع اللحاق بتراكم الأفكار

والأحاسيس التي تهبط على خلايا الدماغ كالوابل المدرار..؟

خَدٌّ لم يَعتدْ عليه الطَّبيبُ الجرَّاح، فهل بإمكان منظاره بلوغ حدود العالم اللامتناهي..!؟ وهل يقدر مِشْرطٌ إسقاط طائرة أو قطع جنزير..؟

تفتَّ نفسكَ لتستلقي بعد هذا الوهن، عيٌّ لا وسيلة للهروب منه، يلحق بك بعضهم كأنك خبَّأتَ شيئاً، فلا يجدون لديك سوى الصمت، وبضع نظرات حبٍّ ابتكرتها، علَّهم لا يُكثرون الأسئلة..

أطفال بلادي مشاريع شهداء، سُرقت أحلامهم فاستبدلوها بأحلامٍ أخرى، أصبح البريقُ المنسكب من عيونهم البريئة أمارات خوفٍ وتردّد، كبروا قبل أوانهم، ألعابهم ليست كألعاب الأطفال ولا يأنسون بسواها، مدرستهم سكنها البوم وعاث بها خراباً، لكنهم لم يهجروها، فصار الكتاب متراساً يحاولون به صدَّ كيد المعتدين.

الأزقَّة باتت مصدراً للرعب، والأبواب يحرسها القلق، إنها جحافل الموت تزرع القتل في كلِّ اتجاه، ألعابٌ وزَّعها الحاقدون في الحواكير، تلقَّفها الأطفال فتناثرت الأشلاء ودمهم يروي الدحنون، وقلعة كانوا يتلمَّسون درس التاريخ الأول بين معالمها، دنَّسها الأعداء محاولين فرض

تاريخ جديد، يكتبونه كما يشتهون زوراً وبهتاناً..

تستوقف تجوالك كتلة غرف متلاصقة، وترى آثار القصف موزعةً بالتساوي، تقرأ بقايا لوحة ما زالت بجانب باحتها، تدرك أنك أمام مدرسة البلدة الرسمية، تمرُّ بجانبك عصاً تحمل امرأة عمرها دهرٌ من السنين، تجاعيد نمت على وجهها تختصر كلّ القول، تستوضحها المكان، تجيبك بسرعة كأنها كانت مستعدَّة للسؤال، فتخبرك عن رحلة البناء-المدرسة، وعن السنين وعدد حملات التبّرع بين الأهالي لبنائها، وتهمس لك بثقةٍ واعتزاز، قمْ بإحصاء الغرف - الصفوف تعلم عدد تلك الحملات والسنوات أيضاً..!

القلم منذ ولادته عاشقٌ للحقيقة، وطلاب يُحْمُر عشقوا الحقيقة والتفوّق، على الرغم من قسوة موقعها، فهي تربض على حدِّ السكِّين الفاصل بين المناطق المحررة والمناطق المحتلَّة، ومنذ أوائل الستينيات كان أبناؤها نموذجاً مميزاً في كافة الأنشطة العلمية والمدرسية، فكانوا الأوائل دوماً في المباريات التي كانت تُقام في المنطقة..

استمرَّ هذا التميّز مع الأيام والسنين، وتجلّى حديثاً في أسرة آل الديراني، فبرز منها (علي، ومريانا، ومايا محمود الديراني)، أبناء تفتخر البلدة بهم، تسمو اعتزازاً مع كلِّ

علامةٍ اكتسبوها، إنهم المثال الذي يُحتذى، وكعادة المسؤولين في وطننا، انهالت على الأسرة رسائل الدعم واتصالات المساعدة من كلّ حدبٍ وصوب، لكن وللأسف بقيت ورقاً لا يُسمن وكلاماً لا يُغني..

وما زال العبء الأكبر على عاتق الأسرة، تحاول جاهدة بذل كلّ ما تستطيع لتأمين ضريبة النجاح، في وطن تتحكَّم المادَّة بحياة بنيه ومصيرهم..

البلدة التي كانت عرضة للقصف اليومي، خصوصاً ما بين العام ١٩٧٦ والعام ١٩٨٢، بقيت أبواب متوسطتها مشرَّعة لطلابها غير العابئين بالخطر المحيط بهم، فضلٌ لا يُنسى لإدارتها وهيئتها التعليمية، التي كانت تنعم بالاكتفاء الذاتي من حيث عدد المعلمين، فأدَّوا رسالتين معاً، قوّة التعليم وقوة التحدّي، زرعوا فحصدوا، حرقت قذائفهم المدرسة عدَّة مرَّات، لكنَّهم عوَّضوا بمزيدٍ من العزم والجهد..

على الرغم من هذه الظروف التي لا تتناسب مع الدرس والتحصيل، تابع شبابها دراستهم العالية، فكان منهم عدد كبير من الأطباء والمهندسين والمحامين وحاملي الإجازات في مختلف الاختصاصات الأدبية والعلمية والمهنية، مما خلق مستوى من الثقافة العالية والذكاء

الفطري اللافت، فتميَّز أبناؤها في أيِّ مكان وجدوا، وفي أيِّ محلٍّ حلّوا، وفي أيِّ عملٍ أو وظيفة امتهنوا.

معلّموها في الثلاثينيات كانوا مفخرة لا بدَّ للحقيقة من التوقّف أمامهم، تربّعوا على عرش الطليعة في المنطقة، ونذكر منهم (علي حسن أيوب، وجميل عليق) ومن بعدهما (حسين داود داود).

كما برز منها رجال دين أجلّاء، اهتمّوا بالإرشاد والتوجيه العلمي والديني (الشيخ محمد ناصر حسين عليق، ومن بعده الشيخ ناصر عليق، والشيخ قاسم عليق)، وهم أبناء وأحفاد "حسين عُلَّيق" الذي ينتسب إليه جذر (آل حسين) من جذور عائلة "عُلَّيق" -العائلة الأكبر في يُحْمُر- والذي قتل في موقعة قرب قرية إبل في ١٤ / ٩ / ١٧٧٢ م. (١)

هكذا..كلّما توغلتَ في أزقّتها، تتلمَّس نبض الحياة متجدداً مع إطلالة كلّ فجر، رغم كيد الأعداء، وتتحسّس أنفاساً تنثر نداها على تلك الورود الآخذة بالذبول، فتحيا، ترى الأمل في مُقلِ أطفالها انعكاساً لقوة الإرادة التي سكنت خلايا هؤلاء العظام..

---

(١) جبل عامل في التاريخ ـ الحجة الشيخ محمد تقي الفقيه ـ ص ٢٣٥/مجلة العرفان ـ ج١ ـ مجلد ٢٨٠. ص ٥٦

في دمعة أيّ أمّ ثكلى تجد طيفاً لشهيد قضى، وفي قسمات كل شيخ جليل تتراءى لك ملامح التقوى التي تُميِّز نفوسهم الطيبة، ومع لمحة كل طفل يتيم تتحسَّس بريق الأمل الذي زرعته أرواح آبائهم الحنون، وفي ألوان الأقحوان انعكاس دمائهم المنسكبة على ثرانا الأبي..

أصوات المئذنة المتعالية تنبئ بحضورهم الدائم، هذا السنديان يستمدُّ من صلابة عزيمتهم منعة وقوة، أمسى يباهي أشجار الدنيا بسواعدهم القابضة على الزناد بعنفوان، هذه القلعة ازدادت شموخاً من شموخ جراحاتهم الراعفة..

بلابل النهر تتفرَّس تفاصيل الوجوه القادمة بعد أن اطمأنت للملامح النضرة، وعند جنبات كلّ واد تسمع ترداد خطواتهم الواثقة، والصدى لم يحتفظ إلا بلحن خلجاتهم، كيف لا ؟ وهم الذين آنسوا وحدته في لياليه الحالكة، فكانوا انسياب الضوء اللذيذ في تلك الليالي..

ويُحْمُر الممرّ الحاضن للوافدين إليها رسلاً إلى البلدات الرَّازحة تحت الاحتلال، وهي التي تمرَّست فنّ الضيافة، فكيف بضيوف كرام حملوا أرواحهم على أكفّهم وباعوا جماجمهم للرحمن؟ أنوارهم تضيء لياليها، وهاماتهم بحجم الوطن..

مقدامٌ جسورٌ قلب "نزيه"، لكنْ.. خاطراً يلمح برأسه فجأة، فيرتعش قلبه ويصاب بدوار، كيف سيواجه أسئلة جدّه الشهيد "موسى بركات"؟ ماذا سيقول عن الكرْم الذي احترق في الغرب ولم يستثنِ شجرة الصنوبر التي تحلو الغفوة في فيئها؟ ماذا يقول عن موسم العدس الذي أحرقوه بُعَيد استشهاده مباشرة؟

ويبقى الأصعب إيلاماً، ماذا سيخبره عن رفيقة دربه؟ هدَّها المرض ووفاته، أيخبره عن السّكري؟ أم عن الذبحة التي أصابتها وبقيت ثلاث ساعات تعتصر الألم عند "أرنون" وماذا.. وماذا..؟

أسئلة كانت تشغل بال الشهيد "نزيه" وهو يرابط بجانب النهر، يحرسه من مغارة تشبه الزاوية التي وِلد فيها، عينٌ على القمر وعينٌ على النهر، يوشوش للقمر سرّ المهمَّة: العدو يحاول سحب النهر وسرقة سمكاته..!

"الحاج أبو غازي سليمان" بسيطٌ كعشاء الفلاحين، لا يعبأ برصاصهم والوقت، علاقته مع "المرج" و"السَّهل" و"كرم الجورة" و"الخلَّة" لا تلتزم بعقارب السَّاعة، ولا بدوران الكواكب حول بعضها، صيفَ شتاء، ليلَ نهار، عطلةً وأعياداً، انفجاراً في الوضع أم هدوءًا، فتلك أمور لا تستحق الالتفات، كل ما يعنيه، إخلاص للأرض نشأ عليه قبل الولادة بزمن..

"أبو غازي" واحد من الذين قلّبوا الأرض بين أكفِّهم، حتى اعتادت على ألحان معاولهم، ومن الذين عصروا الصخر ليقهروا الظمأ، وأكلوا التراب ليرفضوا الذل، وآمنوا بالله في أعماق الفؤاد..

يعيش "أبو غازي" حياة قروية، تعبق بالخير وتطفح بالكدْح، بعد الصلاة يحلب بقراته الغاليات، ثمَّ يسير مع تباشير الصباح، يحاول "الحاج نايف" جاره تأخيره عن الخروج، خصوصاً عند تأزّم الأوضاع الأمنية، فالجواب اليومي حاضر لديه، (يا جار، لكلِّ إنسان ساعته، لا تتقدَّم ولا تتأخَّر، والمكتوب مكتوب وليس منه مهروب)..

ومع توالي الأيام أصبحت قذائفهم تزداد عشوائية وتدمي أكثر، يواصل "الحاج نايف" مهمَّته الذاتية في الحفاظ على جاره القريب، خصوصاً بعدما خبِر لؤم شظاياهم، فهو الذي ما برح يداوي جرحاً من جراحه المتعدِّدة تأخَّر اندماله طويلاً، والسبب شظية قد أخطأت القلب، ما زالت داخل الجسد تؤرقه في ساعات الليل..

وخلال جولة من جولات القصف الهمجي الذي لم يكترث له "الحاج أبو غازي" كعادته، يأتيه المكتوب: قذيفة صهيونية أصابته في السَّاعة المحدَّدة...

تسلّلت "إكمال" بين القذائف، وأعادت الجسد إلى شجرة الكينا ليدفن في أحضانها، تؤمِنُ "إكمال" بالله، فلا تخاف قذائف اليهود، دماء شقيقها "كمال" زادتها عشقاً للمجاهدين، فكانت لهم الزاد والبلسم والضماد، جهات يُحْمُر الأربع تحفظ جيداً جرأتها وتحّديها، والمآثر عديدة..

"أبو غازي" حيّاها والبسمة صباحاً، وعلى ظهرِ دابّةٍ أعادته من السَّهل البعيد مساءً، "إكمال" شكّلت مجموعتها الفدائية (نهاد، إيمان)، أدّت وإياهن المهمة كعادتهن..

مشى الجمع لمواراته الثرى، "الحاج نايف" في المقدمة يبكيه، وحزن يملأ قلبه، لعلّه قصّر في مهمّته هذا الصباح..

شعورٌ مركّب ألَمَّ بي، حزنٌ وبعض فرح، أسى للهَرَم الذي هوى، وربما لحزن أمي تألّمت، أذكر كلامها وأنا طفلٌ في ليالي التبغ: (جيرة "أبو غازي" مؤنسة تُبعِد الخوف عنّا، نداءاته بين الحين والحين تزيل وحشة القلق، وتطرد ذاك الضبع الذي توهّمت عيون أمي مرّةً).

وسكينة يطمئن لها القلب، قبول بحكم الله، "أبو غازي" شهيداً قضى.

للسَّهل في بلادي صدرٌ أكبر من رحابة النساء، يتّسعُ للأغنيات الحالمة ولكلِّ المواسم.. لمواويل الحصّادين وأحلام

المحبّين..لكدح الأيام ودماء العاشقين...

حقول السَّهل اختار "علي أحمد عليق" طريقاً آخر للقلب، ليتجاوز سيراً "أرنون" الحاجز.

إذ كيف لجسدٍ أن يتعافى بعد فصله عن جلده؟

وكيف للعصافير أن تغرّد بعيداً عن أعشاشها؟

اختار السَّهل لكثرة الفراشات، والسَّهل على مرمى القلب والمدفع، اجتاز مسافة، لكنه حتماً لم يستكمل السِّيرة، إذ كان يرغب إيصال مشاعر أترابه لكل فراشات الدنيا، لكنْ، جنازير دبابة صُنِعَتْ مِن أنيابِ ذئبٍ كاسر، وجوعِ ضبعٍ لا يشبع، كانت بالانتظار..

أبيتَ "عليٌّ" إلاّ زهرةً في السَّهل لترويها بدمِك، ربما قصَّة عشق بينكما والكلّ لا يعلم..؟

عبَّأ "عليّ" قبل المسير كلّ ما يستوعب شغافه والشرايين رسائل لعمّه الشهيد "جمال".

آه يا "علي".. أيّ شعور بالانتماء يجعلك تخترق دائرةً من الأبراج المحصَّنة؟ كأنّك تقف مكشوفاً وسط بركة ماء، وتصطفّ مواقع اللئام حلقةً من حولك...

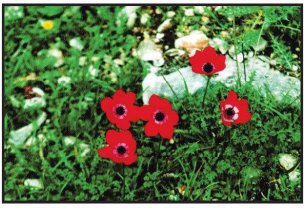

و"جمال"، يتسلَّح بجمال عينيه كانْ.. وعظامه الغضَّة، العمادة الأسبوعية بماء النهر واجبٌ لا يُترك، كيف لهذه البراءة أن تعي كيفية صنع الجنازير المتوحِّشة..؟

مزّقته شظاياهم والنهر شاهد، أصيبَ معه بنفس الشظايا، وأصابوا منه القلب والأطراف، فحجبوا عنه أحبَّته مدة تسعة عشر عاماً (منذ سقوط "جمال" حتى ارتفاع رايات النصر في أيار).

لم تبقَ مياه النهر متماسكة بعدما غادر النهر مجراه..

"إلطاف حسين الجرف" كما "مريم إسماعيل عليق"، كانت "إلطاف" تستكشف تسريح جدائلها عبر قطعة مرآة أخفتها عن الجميع، و"مريم" تربطها علاقة عضوية بالورد الجوري الذي يزهو به مدخل بيتها، يُخَيَّل للناظر إليها أنَّها في مهمَّة علمية تراقب سرعة نمو الورد الجوري في الدقيقة وفي الساعة وفي اليوم، وخلال استراحة لها من دوّامة المهمَّة، كانت تلهو برسمِ حصانٍ أبيضَ استهوى خيالها..

لكنْ.. (وهذه "الـ لكنْ" تعترضنا على الدوام، ترابط عند منعطفات حياتنا، تسكن تلافيف دماغنا)..

لكنْ أنسَى لأنوثة تتفتَّح وقوانين الإجرام في الفيزياء..؟

لم ترَ "إلطاف" في المناهج التي درست وهي المتفوّقة

دوماً، كم تحتاج من أكوام الإسمنت فوق رأسها لتمنع اختراق قذيفة حاقدة..؟

في علمهم الإجرامي، أنتِ أهدافٌ عسكريةٌ هامَّة يا قرنفلات بلادي..

والدَّمع صار لهيباً..

"تيريز حسين عليق"، طفلة، بل زهرة قرنفل، لم تستكمل الحول الثالث من دورة عمرها، كانت تقلِّبُ لعبتها الوحيدة بالأنامل الطرية والضحكة العالية البريئة، تتأمَّلها كأنها تراها للمرة الأولى، لم نكن نُدرك أنَّها طريقة الطفولة في الوداع..

قصفٌ مدوٍّ يرعب العاقل وغير العاقل، تختبئ "تيريز" تحت كرسي بجانبها، كي تؤمِّن الحماية للعبتها من هذا الغول القاتل، "لكنْ" لا الكرسي ولا السَّقف الوحيد لبيتها المتواضع، استطاعا أن يحميا الطفلة أو اللعبة، استشهدت "تيريز" واللعبة في أحضانها، لم نستطع ولم نرِد انتزاعها، هي واللعبة في الأرض دفناها.

"مريم"، "تيريز"، "سليمان"، "موسى"، "سلام"، "جمال"، "إلطاف"، "علي"، "اللعبة"، إنَّ للأسماء معانيَ ودلالات، أرادوا تقديم الشاهد المليون للإنسانية وللقرن العشرين، بأنَّهم قتلة الأنبياء والصالحين والطفولة، بأيّ زمان وفي أيّ مكان..

خلاياك الإنسانية يستفزّها ما يجري لبلدتك، فتقصدُ العقلَ علَّها تدرك الحقيقة، وتسأله عن هذه الشخصية التي تمارس وبكامل الوعي، كل هذا الحقد على البشر والشجر والحضارة..

وبدون وجلٍ من اتهامه بمصطلحات اخترعوها، يجاوب العقل بسرعة وبلا تردد، إنها توراتهم..!

إنها آيات الحقد والدَّم والرّعب والجنس تسري في عروقهم، تنتقل بالتسلسل الوراثي وبالتربية الحاقدة، منذ مئات السنين..

ثمَّ يطرح العقل سؤالاً على تلك الخلايا، هل تعلمين لماذا اليهود يسرحون ويمرحون في أرض العرب؟

تجاوبه الخلايا: من أين لنا، وأنت السيِّد المطاع وعندك مفاتيح الخزائن كلّها.

يتواضع العقل لهذا الإطراء من خلاياه، ويقول: من أهم أسباب هزيمة العرب أنهم لم يصوبوا على العدو الرئيسي بما يتناسب.

وكيف هذا العمى؟ تسأل الخلايا.

فيبسّط الدماغ عليها الأمر:

أيتها العزيزات.. كأنْ تكون الحربُ في الجنوب والعرب يطلقون في الشمال، أو ببساطة أكثر وعلى طريقة أهل

عاملة، "العرس بمحرونة والدبكة بالمجادل".

ويعتقد العرب أن عدوّهم الأساسي ما يسمَّى "بدولة إسرائيل" وما تملك من دبابات وطائرات.. هذا لا يمكن نكران أهميته، لكنَّ العدو الحقيقي يتجلَّى في الباعث الروحي المستمدّ من توراتهم.

يتابع العقل واضعاً يده على الجرح الذي يؤلم خلاياه الإنسانية المتوجِّعة: حتى هذه اللحظة لا يزال العرب يعلِّمون أولادهم، أن دولة الكيان تأسست بناء لوعد "بلفور" سنة ١٩١٧. والحقيقة أنها بناء لوعد ربهم "لإبراهيمهم"، كما ادَّعى زوراً وبهتاناً خيال أحبارهم الإجرامي على مرّ العصور.

يكمل الدماغ إلقاء محاضرته، والخلايا تصغي بشغف للقدر الذي وجدت فيه، ليقول: ربهم يَهْوَه الذي اخترعوه هو ذاته الذي سنَّ لهم قوانين الإبادة، وسأورد لكِ أيتها الخلايا العزيزة فقرة من كتابهم الأشوه، تشرح طريقة ربهم في اللذة والاستمتاع، حين يقول: وتنسَّم يَهْوَه رائحة اللحم المشوي"(١).

يرأف العقل ببراءة خلاياه الإنسانية وجهلها بوسائل الإجرام، ويدعوها للاستزادة من تعاليم كتابهم،

(١) الكتاب المقدس - المطبعة الكاثوليكية - بيروت.

لكي تستطيع الثبات والصمود أمام طرق عبادتهم وفنونها، ويتلو عليها أجزاءً من توراتهم، فتصبح كلّ حواسها أدواتٍ للسمع:

- جاء في سفر التكوين ٧/١٧ على لسان الرب مخاطباً إبراهيم: (وأقيمُ عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك مدى أجيالهم عهد الدَّهر لأكون لك إلهاً ولنسلك من بعدك، وأعطيكَ أرض غُربتك لك ولنسلك من بعدك جميع أرض كنعان ملكاً مؤبداً وأكون لهم إلهاً).
- وفي سفر التكوين ٣/٢٦، وبعد مجاعة حدثت مضى إسحق إلى أبي مالك ملك فلسطين، فيخاطبه الرب: (انزل هذه الأرض وأنا أكون معك وأباركك لأنني لك ولنسلك سأعطي جميع هذه البلاد وأفي بالقسَم الذي أقسمته لإبراهيم أبيك).
- وفي سفر التكوين ٢٤/٣٢: (وبقي يعقوب وحده فصارعه رجلٌ إلى مطلع الفجر، ورأى أنه لا يقدر عليه فلمس حُقَّ وركه فانخلع حُقُّ ورك يعقوب في مصارعته له، وقال أطلقني لأنه قد طلع الفجر فقال لا أطلقك أو تباركني، فقال له ما اسمك قال يعقوب، قال لا يكون اسمك يعقوب فيما بعد بل إسرائيل لأنك إذ رَؤُسْتَ عند الله فعلى الناس أيضاً تستظهر، وسأله يعقوب وقال عرِّفني

اسمك فقال لِمَ سُؤَالُك عن اسمي وبارَكَهُ هناك)..

- وفي سفر التكوين ٩/٣٥: (وظهر الله ليعقوب أيضاً بعدما رجع من فدَّان أرام فباركه. وقال له الله اسمك يعقوب لا يكون بعد اسمك يعقوب بل إسرائيل يكون اسمك فسمَّاه إسرائيل. وقال له الله أنا الله القدير انْمِ واكْثُر. أمةٌ وجماعةُ أممٍ تكون منك وملوكٌ من صلبك يخرجون. والأرض التي جعلتها لإبراهيم وإسحق لك أجعلها ولنسلك من بعدك أجعل الأرض).

ويكمل العقل سرد مقاطع من هذه الروايات:

- (راؤبين ابن يعقوب ضاجع "بلهة" زوجة أبيه). سفر التكوين ٢٢/٣٥.
- (يهوذا الابن الثاني ليعقوب). الذي طبع أحفاده باسمه "يهود". (قد زنى بكنته). سفر التكوين ٣٨.
- (أمنون ابن داود اضطجع مع أخته ثامار. وابنه الآخر أبشالوم نصب الخيمة على السطح ودخل إلى زوجات أبيه). صموئيل الثاني ٢٢/١٦.
- (ابنتا لوط ضاجعتا أباهما. وحبلتا منه. بعدما أسكرتاه). سفر التكوين ٣١/١٩.
- (وكان جوعٌ في الأرض فهبط إبراهيم إلى مصر لينزل هناك إذ اشتدَّ الجوع في الأرض. فلما قارب أن يدخل مصر

قال لساراي امرأته أنا أعلم أنك امرأة جميلة المنظر. فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك. فقولي إنك أختي حتى يُحسَنَ إليَّ بسببك وتحيا نفسي من أجلِك. ولما دخل أبرام مصر رأى المصريون أن المرأة حسنة جدا. ورآها رؤساءُ فرعون ومدحوها لدى فرعون فأُخذت المرأة إلى بيته. فأَحسَنَ إلى أبرام بسببها فصار له غنمٌ وبقرٌ وحميرٌ وعبيد وإماء وأتُنٌ وجِمال). سفر التكوين ١٢/١٠.

- (وارتحل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وأقام بين قادش وشور ونزل بجرار. وقال إبراهيم عن سارة امرأته هي أُختي فبعث أبي مالك ملك جرار فأخذ سارة). سفر التكوين ٢٠/١.
- ويخاطب الرب موسى قائلاً: (وأجعلُ تُخْمَكَ من بحر القُلزُم إلى بحر فلسطين ومن البَّرية إلى النهر فإني أسَلِّمُ أيديكم سكان الأرض فتطردهم من أمام وجهك). سفر الخروج ١٣/٣١.
- (لا تشفق أعينكم. ولا تعفوا. الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء. اقتلوا للهلاك). حزقيال ٩/٥.
- (تمحوا اسمهم من تحت السماء). تثنية ٧/٢٤.

يتابع العقل حديثه والخلايا ساكنة كأن على رؤوسها

الطير، يشرح لها علاقة اليهود مع المعاهدات والعهود:

- (لا تقطع لهم عهداً.. ولا تصاهرهم). تثنية ٢/٧. (وإذا رجعتم ولصقتم ببقية هؤلاء الشعوب، أولئك الباقين معكم، وصاهرتموهم ودخلتم إليهم، وهم إليكم، فاعلموا يقيناً أن الرب إلهكم لا يعود يطرد أولئك الشعوب من أمامكم، فيكونوا لكم فخاً وشركاً، وسوطاً على جوانبكم، وشوكاً في يمينكم). يشوع ١٢/٢٣.
- (اقتل رجلاً وامرأة طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً). صموئيل الأول ٣/١٥.
- (بالوجوه إلى الأرض، يسجدون لك، ويلحسون غبار رجليك). أشعيا ٢٣/٤٩.
- (ها أنا أطارد من قدامك الأموريين والكنعانيين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين، احترز أن تقطع عهداً مع سكان الأرض). سفر الخروج ١٢/٣٤.
- (وإذا أدخلك الرب إلهك الأرض التي أنت صائر إليها لترثها واستأصل أمماً كثيرة من أمام وجهك.. سبع أمم أعظم وأكثر منك، وأسلمهم الرب إلهك بين يديك وضربْتَهم فأبْسِلُهُم إبسالاً. لا تقطع معهم عهداً ولا تأخذك بهم رأفة، ولا تصاهرهم ابنتك لا تعطيها لابنه وابنته لا تأخذها لابنك). سفر التثنية ١/٧ وفي ٦/٧ (لأنك شعبٌ

مقدسٌ للرب إلهك وإياك اصطفى الرب إلهك أن تكون له أمة خاصة من جميع الأمم التي على وجه الأرض. لا لأنكم أكثر من جميع الشعوب لَزِمَكم الربُّ واصطفاكم فإنما أنتم أقلُّ من جميع الشعوب. لكن لمحبة الرب لكم ومحافظته على اليمين التي أقسم بها لآبائكم). وفي ١٦/٧ (وتفترس جميع الشعوب الذين يدفعهم إليك الرب إلهك فلا تشفق عيناك عليهم).

- وكما يدَّعون كذباً على لسان النبي موسى "ع": (فالآن اقتلوا كلّ ذكر من الأطفال وكل امرأة عرفت مُضاجعة رجل اقتلوها. وأما إناث الأطفال اللواتي لم يعرفن مضاجعة الرجال فاستبقوهن لكم). سفر العدد ١٧/٣١.
- (بنو الغريب يبنون أسوارك. ملوكهم يخدمونك. تنفتح أبوابك دائماً ليؤتى إليك بغنى الأمم. وتقاد ملوكهم. لأن الأمة والمملكة التي لا تخدمك تبيد. وخراباً تخرّب الأمم). أشعيا ١١./٦٠.
- وجاء في سفر الملوك الثاني١١: (قام داود عن سريره وتمشى على سطح بيت المُلك. فرأى من على السطح امرأة تستحم.. فأرسل رسلاً. وأخذها. فدخلت إليه. واضطجع معها. ثم رجعت إلى بيتها. فحبلت منه. وكان زوجها "أوريا الحثي" في ساحة الحرب. فأرسل داود في

طلبه، وأمره بالمبيت في بيته. لكن أوريا نام على باب بيت الملك وحين سأله داود في الصباح لماذا لم تنزل إلى بيتك؟ قال أوريا: إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي، وحياتك لا أفعل هذا الأمر.. وفي الصباح كتب داود إلى يوآب قائد جيش داود وأرسل المكتوب بيد أوريا.. يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه، فيُضرب، ويموت. وعندما مات أوريا الحثي.. أرسل داود إلى امرأة أوريا وضمها إلى بيته).

تصرخ كلُّ الخلايا الإنسانية صرخةً واحدةً، تضجُّ لها كلّ لغات البشر: كفى، كفى هذه الخرافات اللعينة،

قُصف مساءَ يوم سبت..

والآن.. الآن فهمنا كلَّ شيء، واستوعبنا الحقيقة المرَّة القاسية، وأدركنا لماذا شوَّهوا وجه "سلام" وعينَي "جمال"..

وإذا كانت أساطيرهم قد شوَّهت سيرة كلّ من النبي سليمان"ع" والنبي موسى"ع"، فمن السَّهل عليها تشويه جسدي "سليمان عليق" و"موسى بركات"..

وإذا كانت مريم"ع" بإرادة من الله عزَّ وجلّ أمّاً للنبي عيسى"ع"، وتيريز قديسة طاهرة آمنت بهما، أصبح جلياً لماذا استهدفوا "مريم" و"تيريز عليق"..

و"خَيبر" لا تُنسى ما بقي ليل ونهار، تُفصح بوضوح، لماذا قتلوا "علي عليق"..

أصبحنا نعرف.. ونعرف .. ثمَّ تصمت الخلايا عابسةً أمام هول المشهد الحقيقة، وبهدوء تعاود سؤال العقل، وهل كلّ حروب البشر كالتي نعيش؟

بالطبع لا، يردُّ العقل، ويتابع، إن الحروب المصيرية للشعوب المستضعفة تختزن بداخلها قيماً ومفاهيم حضارية، وتحمل بطيَّاتها رسالة لبني البشر، أما أصحاب حروب القوة والنار فقد تتغلَّب وسائل الفتك التي بحوزتهم، لكن إلى حين، كما هو جبروت "إسرائيل" اليوم، أما القيم والمفاهيم الإنسانية فلا تزول، وإن كانت لا تملك

أدوات القوة اللازمة، ولأنها راسخة في الضمير الإنساني، تستحضر نفسها وتضحياتها ولو ببطء نسبي، لمرحلةٍ حضاريةٍ لا بدَّ من مجيئها، تنتزع من خلالها الانتصار على آلات الفتك والدمار..

تُعجبُ الخلايا بهذا التحليل المصحوب بالأمل، وتسأله أيضاً، وهل موقف الغرب العلمي المادي من الكيان الصهيوني يتأثر بهذه الخرافات التوراتية؟

يجيب العقل متأسفاً: نعم، لأن وثيقة الصهيونية في استملاك أرض فلسطين، موجودة في كتاب العهد القديم -الجزء الأول من الكتاب المقدس- لهذا فقد تسرَّبت دعوات الصهيونية إلى نفوس العالم الغربي، وخصوصاً الأمريكي منه، فهو الحاضن والمرضع للفكر الصهيوني، ودعم فكرة العودة إلى أرض الميعاد، ليس بدافع المصالح فقط..

والمضحك المبكي أيتها الخلايا، أن أفضل شتيمة عند اليهود هي يسوع، وعند ورود ذكر المسيح في تلمودهم يرددون "ليختفِ اسم الشرير..!".

وا أسفاه تقول الخلايا، وتضيف مستطردة: إذاً، إنَّ مشكلة العرب تكمن بعدم بذلهم الجهد الكافي لمعرفة مقومات وعناصر الشخصية اليهودية، ولهذا يصابون بالذُّعر أمام هول كلّ مجزرة ترتكب بحقهم، ثم ينسون أو يتناسون..

وسنطرح عليك سؤالاً أخيراً يُحيِّرنا أيها السيِّد العقل: لماذا يُعتبر اليهود في زماننا أصحاب كتاب سماوي، ويعاملون كأنَّ لديهم رسالة سماوية في النصوص الشرعية والقانونية في بلاد العرب والإسلام؟ وهل بقي أثرٌ من رسالة النبي موسى "ع" عند يهود اليوم؟

يطرق العقل قليلاً كأنه أُرهق من هذا الحوار، أو أُربِكَ من السؤال، بل ربما لصعوبةٍ في الجواب، وبعد برهة يجاوب خلاياه:

"عذَّبني طويلاً إلحاح هذا السؤال وتتملَّكني حيرةٌ ما بعدها حيرة، فأنا لا أملك إجابةً لسؤالكِ أيتها الخلايا الإنسانية المعذبة..!".

وبعد استراحة قصيرة من ألم السؤال السَّابق، يستعيد العقل عافيته، يُودِع خلاياه رسالةً كي تنشرها على مختلف أنواع الخلايا عند البشر، وممَّا جاء فيها:

بما أنَّ للثوار وجهاً واحداً، إنها دعوةٌ لكلِّ قلمٍ وريشة، لكلِّ صوتٍ وبكلِّ اللغات، لكلِّ عقلٍ عربيّ، مدنيّاً كان أم عسكرياً، في موقع القيادة أو لاهثاً وراء كفاف يومه..

إنها دعوةٌ للإنسان..لا تُوَلّوا وجوهَكُم صوب حائط المبكى في مجلس الأمن، إنما إلى حائط مبكاهم وخفاياه، كي لا نصبح نحن يهود التاريخ، نعوي في الصحراء بلا مأوى..!

ترتعش كلّ الخلايا بداخلك لهذا الحديث المرعب، وتصيبُ جسدك قشعريرة لم يَشفَ منها إلا بعد غفوة قصيرة..

حلمٌ جميلٌ شاهده العقل وكل الخلايا: إنَّ لشهر أيّار مستقبلاً واعداً، يمحو ما علق في الذاكرة من صفحاته السوداء ...!

عمرٌ تجتـرّه المواكب، وليالٍ متقلّبة غامضة، محرّك عجلة الزمن يسير بلا توقُّف، العقل والخلايا، "إلطاف"، "جمال"، "موسى"، "علي"، "سلام"، "مريم"، "تيريز"، و"اللعبة أيضا"، جميعهم بانتظار مجيء أيّار ما يحقّق الحلم..

يُحْمُر اعتادت التضحيات وصون الأمانات، لتنال من خالقها المكرمات، محاور الجهاد واسعة ومتعددة، "الخردلي" يناجي الخلاص، والنهر بواديه خير صديق، "مرجعيون" تشتاق لتراتيل الجهاد على الأفواه الطاهرة، تلوّح "الطَّيبة" لتكشف عن العملاء والمحتلّين أقنعتهم ومتاريسهم، "العزيّة" تنال نصيبها من الضربات، تزحف "دير سريان" لتلاقي الزحف الذي طال انتظاره، فيهلّل النهر وينشد أعذب الألحان، تسمع "علمان الشومرية" وتتبادل القرى تلك الحكايات..

مواقعُ للأعداء قد خبرها جيداً أولئك الفرسان.

سيحفظ التاريخ جيداً: (في ختام العام الدراسي بعد انقضاء القرن العشرين، نالت يُحْمُر الشقيف شهادةً فخريةً كلّلت جبين أبنائها: هي الينبوع الغَيداق للمقاومة، والبيت الآمن للعابرين، الحاملين شوقهم للأرض المغتصبة عند حدود الوهم، ليجدّدوا العهد أمامها مباشرة، بأنهم للقدس قادمون).

لكلّ قريةٍ "فاطمتها"، وسيّدة عاملية في "العديسة" تجهّز الزاد سرّاً لفتية عشقت فيهم ملامح وجه بلادها، و"أبو ساجد" حمل قبضة من تراب يُحْمُر نثرها هناك ، فنبت الزيزفون والطيُّون على ضفاف فلسطين.

الحاجة "فاطمة" راضية بأنَّ "يوسف" هو زكاة أبنائها، ويأبى "أبو صالح" شقيقه إلا ليلة القدر موعداً، كي يلقي جسده الطاهر كما "الحسين" عشرة أيام في العراء، تظلّله أغصان الزيتون الصَّامدة بوجه آلتهم الحربية، تصرُّ هذه الأشجار إلا أن تبقى واقفةً كما المجاهدين، شاهدةً على حقدهم الأعمى وكرههم لكل أشكال الحياة..

تلوّح تلك الأغصان معاهدة الأشجار الذابلة خلف النهر، إنهم انطلقوا.. من هنا عبروا.. فتية بعمر الربيع بل بربيع العمر.. حملوا التحايا وقلوبهم وأحلام أطفالهم ودعاء الأمهات وارتحلوا.. لقد عادوا.. لا ربما لم يعودوا.. أفرغوا كلّ رصاصهم وقلوبهم فجَّروا..

كحَّلتْ البلدة عينيها بسنى سيوفهم وصورهم، عائدين على صدر القمر، زغردت النسوة، صبيَّةٌ حملتْ وشاحها البنفسجيّ وخبَّأت لحاظ عينيها، محاولةً استراق النظر لتلمح عريسها في وجوه العائدين، شرَّعت قلبها لفتاها القادم مكللاً بالغار، لم تستطع التمييز، فالملامحُ ذاتها والقمر يعكس نفس القسمات، أطالت التحديق حتى اغرورقت عيناها بالدموع، تبدّل لون وشاحها، كتَمتْ وجعها، وبدأت رحلة الألم والانتظار..

صعدتْ إلى أعلى البلدة ربما تلمح حتى الجلَّاد في ذاك

السّجن، أو لعلَّ النسيمات تحمل أمانيها لعريسها القابع خلف القضبان.

كيف لحلمٍ ورديٍّ أن يُسجن في أقبية التعذيب هناك؟ كيف لهؤلاء العتاة أن يحاصروا أحلام الصبايا الجميلة كجمال قلوبهن التي لا تعرف الانكسار؟ وهنَّ اللواتي نصبن خيامهن حين دُمرت بيوتهن فوق سحابة ريح حامل، والأفق يمتدُّ للبعيد البعيد..

كيف لخيام أحلامهن أن تتقزَّم إلى سنتمترات؟ أو في أحسن الأحوال إلى غرفٍ كالقبور؟

عشرات الفتية الرجال تنقَّلوا بين زنازين القهر، من الريجي الصمود، إلى أنصار العظمة، وصولاً إلى عتليت الحنين، وها هي "خيامهم" تحاول خنق الأمل في النفوس، لكن أرواحهم تسمو بصلابة الأجساد التي تسكن، وأحلامهم تقاتل معهم زرد الزنزانة والاحتلال..

آه لهذه البلدة التي توزّع فِتيتها أحياء في السجون (٦٦ معتقلاً)، وشهداء تُحتجز أجسادهم الطاهرة (٢١ شهيداً)، وجرحى يكابدون الألم ويشمخون (٢٧ جريحاً)..

"أمّ سمير"، إحداهن، أدخلها سجن ولدها دوامة المرض، وزادتها فترة السجن أوجاعاً. سنوات ثقيلة قضتها تراقب الثريا، تشبك نجومها بخطوط ودوائر، لتنسج منها

كـنْزةً أو شـالاً "لسـمير"..

الأيام من السّاعات صنعوها، والدقائق لا بدَّ لها من أن تمر، والثواني صدى لدقات القلب، أمّا القلب فقد أنهكه لؤم الانتظار، فيتوقف ترداد صداه..

هَـوَت "أمّ سـمير" فـاحّة ذراعـيـهـا إلى السماء، متضرّعة أن يُفكَّ قيده قبل الوفاة، فأذَّن "سمير" بشباب البلدة هناك، وتلا عن روحها ما تيسَّر من الآيات، كبُر ألمه وطال ليتجاوز ثلاثة عشر عاماً ونيِّف، وعندما لفحت نسائم التحرير وجه الوطن، حملته جموع النصر إلى البلدة بمائة سيارة، هي عدد سيارات يُحْمُر وهو عميد أسراها...

أولئك فتيتك يُحْمُر..

نكتب عنهم فيهتزُّ القلم لشدة ما يختزنون، القلب يعتصر ألم الفراق، الدمعة تتجمَّد خجلةً أمام عظمتهم، كيف لا ؟ وما زال قلب "جودت" يوزّع شوقه فوق كل قرى عاملة مؤذناً فيها كالغفاريّ شاهراً سيفه، معانقاً نداءات أخيه "رفعت" حيَّ على الصلاة، "نزيه ويوسف" جانب الكنيسة يبشّران بالدين الواحد حرباً على المحتلّين وبكلِّ اللغات، فتهتزُّ حجارة القيامة زهواً..

يسمع "إسماعيل" الصدى قرب "علي الطاهر"

فيصلّي صلاة الثوار، يرتعش قلب "كمال" فرحاً، يحدّق "علي إسماعيل عليق" صوب القدس مستمدّاً من طهرها قبضة جمرٍ ألهبت قلوب الأعداء، فيزغرد الأطفال في غزة هاشم..

يتساءل "غالب": كيف للأمة أن تحيا ونبض قلبها مخنوق؟ كيف لها أن تعيش جسداً وروحها معلّقة بين حُفر القذائف وبوابات القهر؟

ويتّسع النداء.. دوائر تكبر أقطارها مع ارتفاع الشمس وبزوغها..

"أمُّ حسين"، أمٌّ لشهيدَين، بل لكلِّ الشهداء، قدوةٌ هي ومثال، عاطفة جيّاشة وأمان يُنسيانها فقدان ولدَيها، فتتفرّغ لتضميد جراح أمّهات الشهداء والجرحى والمعتقلين، فيض بسمتها يُبلسم وجوه الأمانات التي خلّفوها قبل الرحيل، وأمان يملك جوارحها: ولداها لم يخرجا لغنيمة أو دنيا..

يقف "حسن جواد نصر الله" شامخاً قبالة ثكنة "عرمتى"، النبلُ يشعّ من عينيه اللتين استطاعتا تحديد العدو والهدف في زمن الغشاوة والردّة، يشحن "حسن" روحه والذكريات، حنينٌ لأزقة تحفظ تراتيل الفؤاد، دعاءٌ مستجابٌ لوالدة أودع صورتها القلب، كالفراشات يتنقّل من وردة إلى وردة، يشتمُّ عبيرها ويُودعها أعذب نشيد..

ثلاثة قتلى صهاينة في عبوة "سجد"، خمسة جرحوا في "كفر حونة"، قتيل في "الشومرية"، يخاطب "حسن" نفسه، لا داعي لاستكمال الإحصاء ما دامت الأعمال بالنيات.

يستحضر "حسن" كلَّ صور الذاكرة، يتلو ثلاثاً من السور القصار لها في نفسه وقع خاص، يأخذ شهيقاً ومطمئناً يتقدَّم نحو الموقع، قوى الغدر والجريمة تتركَّز هنا، يشتعل الأفق طرباً باحتراق وكر الغزاة، فجّر "حسن" غضبه والجسد، كتب بدمه وصيته الأخيرة قبل النفس الأخير: المقاومة أمانة..

سكت الرَّعد وانقلبت دورة الحياة..!

مَن يسمع تراتيل الفجر حتماً سيعرف صوته..!

يهبُّ "أبو ساجد عليٌّ" مستلاًّ سيفه، حازماً كسيف عليّ، يرتّل ما تيسَّر من سورة الحرب، يحمل جعبته مع

بسمة القمر، الزّاد ثقيل والمهمّة شاقّة وينطلق، يُقلّبُ القرى بين ذراعَيه، يسرّح جدائلها بحنان أنامله، يملأ جراره من ينابيعها ويتوضأ، ثمَّ يعلن صلاته حرباً لا تهدأ، وتسبيحه رصاصاً يدكّ الحصون، والنهر محطته، ما أن يبتعد عنه حتى يرجعه الهدي إليه، يقيم الصلاة على ضفافه، ثم ينطلق من جديد إلى بساتين الجهاد..

يتردّد صوته "الله أكبر" في كلّ الوديان، يُغبط الأقصى، تنهض كل القرى على أنغامه، يتهامس الجموع برهبة وخشوع، هذا صوت "عليّ" يأتي من مفارق "كفركلا"، بل من سفوح "سجد"، لا لا يجري مع نسائم القلعة، يصدح في الجموع صوت "أبي ساجد" آتياً من القلب، "أبو ساجد" هو ذاك المدى الممتدّ من القلب إلى القلب..

تجنح أسراب الحمام على وجهه، تغازل نقاء عينيه، تقبّل الطُّهر الموزّع من جبهته، يفيض الأمل من بريق عينيه الناعستين الواثقتين الشاخصتين جنوب الجنوب، يصحو من غفوته، يحادث أسراب الطير ويهمس لها حكايات الشهداء، له كلّ يوم محطة مع الشهادة والجراح والحصاد، يُصاب عدَّة مرَّاتٍ ويستحي الموت عدَّة مرَّاتٍ من بندقيته..

سفوح "زوطر" اختصرت قضية التحرير برجل، اهتزاز "بئر كلاّب وسجد"، جراحات "علي الطاهر"، وهب

"الأولي" دمه لوناً للحياة، ولم تزل بصمات التحدّي التي أودعها في زوايا الزنازين ذكرى عزيزة للأجيال المرفرفة برايات النصر..

يا قمراً في ليلة بيضاء، ارتحلتَ بصمت، وقع ألحانك يتردَّد في الأودية والقلوب، كبَّرت المآذن المُرهَقة في عاملة، توهَّجت نجمة في السَّماء تتباهى بنور القلب المشّظى، ولا تزال كلّ القرى واجمةً لفراقك، تغفو مع مغيب الشمس، روابي الشقيف تسأل عنك، عن فتى عاشق كتب على الصخور قصائد حلم، حلم لم يكتمل ربيعه بعد، حملت الملائكة عشقها الوردي، وانطلقت لتحتفل بعرس الشهادة وتزفَّك ملاكاً من جديد..

تدمع عينا "إبراهيم" لفراقك أيها القائد، ويصرخ "أبو مصطفى": لقد ارتحل الصديق والصدّيق، وأعداء ما زالوا يدنّسون قدس الأرض، وهو القدّيس الثائر والملاك المتمرّد، فالقيادة من لوازمها التميّز، و"أبو مصطفى" يتمايز عن المميّزين، يحمل أمتعة صيده ويُبحر، إن البحر بين الناقورة وحيفا يختزل كل بحور الدنيا..

ينساب "أبو مصطفى" في مياه البحر، يشق عبابه، يسبر أغواره، ترافقه رائحة التبغ والقمح وسورة الإسراء، لتمدَّه بهواء الحياة..

يستنشق عطر الأرض والبيت العتيق، يداعب أمواج اليَم، يقلّبها براحتَيه، يفرغ بعضاً من حنينه في زبدها، حتى ارتسمت صورة وجهه الباسم على صفحات المياه، يمسح عينيه بقلبه ويبحر إلى أقصى القلب، حيث دفنت فلسطين..

يحتضنه الليطاني طويلاً، وعند بوابة الناقورة يأتمنه بعض الأسرار، ثمَّ يودّعه على أمل اللقاء القريب..

ينهل معه ما تيسَّر من حكايا أطفال الجنوب، يسترسل بسرد أخبارهم لسمك البحر، ولمرجانة هامت به..

لؤلؤة في قعر البحر قبالة "صور"، كانت تنتظر بفارغ الصبر عودته سالماً غانماً، باتت تعرف وقع حركاته وزفرات أنفاسه، صخور الشطآن الحزينة كانت تقيم الأعراس لقدومه، تحتفل به حاملاً تباشير الأمل..

أسراب النورس تحرسه حتى حدود الضفَّة الأخرى من البحر، تشدو معه أغنية الأصيل، ومن ثم تسلّمه آمناً إلى نوارس حيفا وعكا، وتنتظر انبلاج الفجر..

حكاياه مع النوارس تطول لبُعد المسافات، وطريقه

قصيٌّر قصير لقرب الأقصى من القلب ومن يُحْمُر، يختصرُ الأبعاد طولاً وعرضاً بتماوج ساعديه، بالنشيد، بالنسيمات، باطمئنان الواثق المنتصر..

في أمسية من أمسيات الوعد، أبحرَ "أبو مصطفى" عميقاً في البحر الواسع، حاملاً للقدس ما استطاع من العتاد والحنين، تهامسا، تعانقا وطال العناق، وعناق الأحبَّة دوماً طويل..

غفا على صدرها، قصَّ لها حكايات البلدات المتعبة، وآهات الشهداء، حدّثها عن عاملة الزَّاحفة إليها وحيدة، والأمة صامتة كصمت بئرٍ موحشة في القلعة..

في تلك اللحظة الخاطفة، تبادلا الأشواق سريعاً، فالأوانُ محدَّدٌ للعمل، لكنَّه أخبرها عن أسماء العشاق الذين رحلوا قبل وصولهم إليها.

في زحمة هذا الهوى، يدوِّي الصَّدى، الغول قادم، من كلِّ الجهات أتى، أثار حقده رؤية العشق والجمال، فهاج البحر وماج، وابتدأ الرصاص..

أطلق "أبو مصطفى" كلَّ ما في قلبه من غضبٍ وحُب، أفرغ جعبته من كلِّ الفراشات التي بعثها الجنوب لأطفال "جِنين"، أسماك البحر أصبحت مثل مفاتيح الجنّة بين يديه، استدعى الغول كلَّ أنيابه، وطلب منه الاستسلام

لوحشيته، لكن أنَّى لهم هذا.. وهل مثله يبايع مثلهم..!؟
هذا مستحيل "أبو مصطفى" الوحيد..
النار والبارود أفضل لغة يفهمها هؤلاء الأوغاد، وما قيمة ما سيتحوَّل غداً إلى تراب..؟
يعمُّ الصمتُ برهة..
إنَّها رصاصةٌ حاقدة اخترقت الفؤاد..
تتأبطُ القدسُ بجسده الطاهر، وشجرة كينا هناك، ضمَّته إلى صدرها لعامَين كاملَين..
احتشدت الملائكة في موكبٍ مهيبٍ تتلو ما تيسَّر من آيات الله..
ينابيع النهر أخذت لون الدَّم بديلاً..
البحر الأبيض آثر الانطواء خجلاً..
والنوارس هجرته إلى آخر خالٍ من الغيلان..
ويُحْمُر زغردت ابنها الذي زاد من مجدها والعنفوان..
مئذنتها أضناها الشوق والحنين والانتظار..
آه لهذا الوعي الفطري، لم يخفَ أمام عيون أبنائك، يُحْمُر، هذا الرابط المتين بين مسجدك العتيق والمسجد الأقصى، قدَّمتِ أغلى ما تملكين على طريق الجلجلة، جمع المصابيح تتَّسع دائرته مع كلِّ مغيب...
آه منك يا عروس القرى... انتفضي لملمي أشلاء فرسانك الموزَّعين، لتؤكِّدي أن رابطة التراب أقوى أو توازي

أواصر الدم، تتوحَّد الدماء في الفضاء الشاسع، والأجساد تحتضن التراب الذي عشقت...

إنك أرضٌ مسكونة، كنتَ طفلاً تسمعُ هذا الكلام، فإمّا تخاف منه أو تستهزئ به، والآن أيقنت كما الجميع بأنكِ يُحْمُر مسكونة حقاً، وبيوتك أيضاً، هذا الفضاء اللامتناهي يمتلئ حياة، نعم فأنت مسكونة بأرواح الشهداء وعذابات الأسرى وأنّات الجرحى من فلذاتك، مسكونة بالعزّة والكرامة ورفض الذلّ والانكسار.

مسكونة نعم، واسمك يعنيك تماماً، وأجزم بأنّك من الدَّم اخترتِه بين أسماء الدنيا كلّها، وهذا الأحمر القاني دلالة واضحة على صدق الانتماء، والحصارات المتكررة دلالة واضحة على عظمة أبنائك، فتحوَّلتِ بلدةً بحجم الوطن، بل بحجم الأمة..

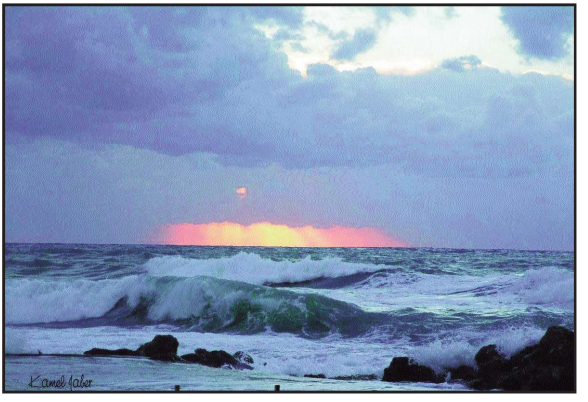

يُستشهد "كمال"، فينتقم الحوت حصاراً على البلدة (٢٩ / ١٢ / ١٩٨٧) . يُستشهد وعينه على القلعة، قلبٌ كالصَّخر يحلم بذكريات الطفولة، يتمرّد حسّ الانتماء في طرق يُحْمُر الضيقة، فيتفرَّغ الجميع لفكِّ الحصار، تتواصل اللقاءات مع الهيئات والمراجع الوطنية والدولية، فتضطر "إسرائيل" للتراجع، ويُهزم الحصار الثاني..

وبعد عمر من الأحزان، (يقدّر زمنياً بسبعٍ من السنين تنقص خمسةً من الأشهر) تحتفل أسماك البحر ولآلئه قبالة فلسطين باستشهاد "أبي مصطفى"، فتنتقم جرافات الاحتلال ليلاً بقطع الحبل السري الوحيد عند البِركة في "أرنون"، قَرارُهُم: ضمّ البلدة للشريط المحتل، والقصد: قطع الممرّ الخصب أمام المجاهدين، فينهض الجميع ببلدتهم المتمسّكة بالحرية.

اتخذوا من مقر الصليب الأحمر في "النبطية" مركز اعتصام مفتوح ودائم، طوال فترة الحصار الذي امتد شهراً كاملاً (من ٢٧ / ٧ / ١٩٩٤ حتى ٢٧ / ٨ / ١٩٩٤) ينطلقون منه إلى كلِّ الجهات السياسية والأمنية والاجتماعية والروحية وعلى كل المستويات.

كما تواصلوا مع أعلى المراكز الدولية من منظمات

إنسانية ورسمية دولية ومراكز الأمم المتحدة ومجلس الأمن والصليب الأحمر الدولي وسفراء وقناصل الدول ذات القرار، حاملين قضيتهم بحماس ومحبة وإصرار.

يناضلون ليل نهار، ومكتب "النبطية" للصليب الأحمر مركز انطلاقهم وتحركاتهم وتوزيعهم المهام وتشكيل الوفود. وكان المركز يعجُّ بالزائرين المتضامنين والمستنكرين للحصار من كل المستويات السياسية، ابتداءً من الرئاسات الثلاث، مروراً بكافة الوزراء والنواب والسياسيين والمراجع الدينية والأحزاب والمؤسسات الإنسانية الداخلية والخارجية، إضافة إلى تواصل اللجنة الدائمة للاعتصام مع كلِّ الفعاليات الإعلامية والنقابية وغيرها.

بجدِّهم ومتابعتهم الدؤوب أصبحت حركتهم تقضُّ مضجع مجلس الأمن، فحصلت اتصالات دولية بمستويات رفيعة بين الدول ذات العلاقة، أدَّت كلّها إلى انصياع أمريكا قبل "إسرائيل"، فأصدرت أوامرها إلى "قوات لحد" برفع الحصار، (هذا ما تمَّ إعلانه) حتى لا تعترف بهزيمتها أمام إرادة الناس.

وفي ختام الاعتصام الناجح للأهالي والقوى والجمعيات الأهلية التي آزرتهم في مقرّ المجلس النيابي

اللبناني، تلا الأستاذ "رفيق شميساني" بياناً باسم المعتصمين، أعلن فيه أن الجميع قرروا الاعتصام الدائم أمام السفارة الأمريكية في "عوكر" بعد يومين، إذا لم يتم إنهاء الحصار، فلم تستطع أوكار الفجور في "عوكر" أو في "البيت الأسود" من احتمال هذا الإحراج، فأُعيدت الحياة إلى طريق يحمر، وانتهى الحصار الذي استمرَّ أكثر من شهر ...

وبدلاً من أن تكون "يُحْمُر أولاً"، كما كان "البوم الأمريكي" يُسوِّق شروطه لفكِّ الحصار، ومطالبته بضرورة دخول الجيش اللبناني لاستلام الأمن فيها، كسابقة يُمكن تكرارها حيث تدعو حاجة العدو، فرضت يُحْمُر الشروط ولم تقبل بشروطهم، اختارت منطق المقاومة وفازت على المحتل..

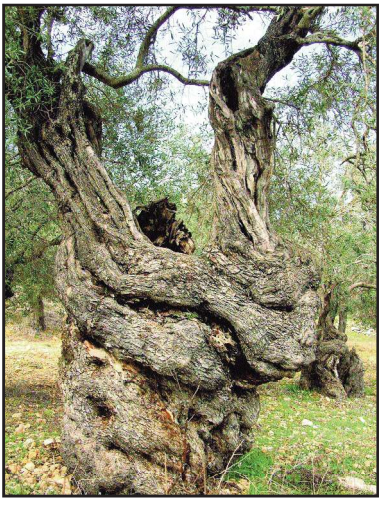

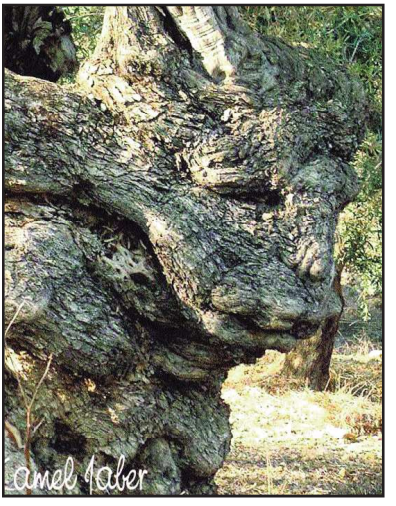

أصبح ليُحْمُر قضيتها الخاصة وهي التي تعشق التحدّي، حصار طروادة يسترسل فيه الخيال، أما حصار يُحْمُر حقيقة أمام الناظرين، يستطيع كلُّ من يرغب المشاركة في ملحمة التحدّي هذه، فيكبر...

هي والقلعة والنهر والسنديان اعتصموا بحبل الله، وعلى قدر أهل العزم كانت، استنهضت مكامن القوة في عقول أبنائها وأفئدتهم، شرَّعت كافة مخازن الأسلحة التي تملك، استنفرت كلّ ما تختزن ذاكرتها التي لا تنسى، فالقضية لا تحتمل الهزيمة والتاريخ شاهد لا يرحم المهزومين..!

- النهر تاريخ عميق، والنهر بالتجربة خير سلاح، يعود إلى ما شاء الله في الانتماء الراسخ، حدَّد الاتجاه ولم يُبدّل المسير رغم تقلّب العصور، كذاك الفتية في بلادي، تحدَّوا الرياح العاتية ولم ينحنوا، فالقبلة غاية وسبيل...

- القلعة تنبض حياةً منذ أول حجر بناه الوثنيون، تكبر مع الزمن وتسمو شموخاً، ويزداد سطوعها في تاريخ جبل عامل، أنامل المؤرخين سطَّرت بحروفٍ من نور، أنَّ الغزاة مضَوا دوماً وبقيت القلعة، تاريخ يُحْمُر من القلعة، الميدان واحد والمصير أيضاً..

- استذكرت يُحْمُر ما حفظت في الوعي وعدمه، كلّ الآيات

التي تفيض بفيض الشهداء، وتلك التي تحضُّ على الجهاد أو التي تفضح كيد اليهود: قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم.. وأعدوا لهم ما استطعتم.. بل أحياء عند ربهم.. آيات بيِّنات هبطت على رسول البشرية محمد بن عبد الله "ص"، انطلقت من قلب الصحراء هدى للعالمين إلى يوم الدِّين، سيرته المفعمة جهاداً ونبلاً تغذِّي المُهج والعروق..

- وسيفٌ لعليٍّ يتلألأ أبداً في سماء المعمورة، ودمٌ للحسين شعلةً، ينبوعاً، وثورةً يؤجِّجها جَور الطغاة حتى قيام السَّاعة، ذكراه حرارة لا تنطفئ أبد الدهر، وأفكار الإسلام المحمَّدي تنمو، فالبذرة أصيلة مباركة من أرض غفار...

- تجذّر في الأرض، وشجر الزيتون يخترق الصخر معلناً موقفاً، إنهم هنا باقون، مائتان وأربعون عاماً و"حسين عليق" ينطلق من القلعة لمواجهة الظلم تحت راية "الشيخ علي الفارس"، وتستمرُّ علاقة الرَّفض بين أحفادهما، حكايات "شبيب، ومحمد علي، وأدهم خنجر" (أبناء وأحفاد الشيخ علي الفارس)[1] تسطع مجداً في صفحات التاريخ، صدى خطواتهم في أودية البلدة مع خطوات "نصر الله زهنون وأيوب عليق" ما زال يُسمع،

(١) تاريخ الجنوب اللبناني، محمد سعيد ياسين، دار الغد العربي، ص ١٤٦- وتاريخ جبل عامل، محمّد جابر آل صفا، دار النهار للنشر، ص ١٤٨.

وشهداء من "الجليل" مقاومين حفرت جدران البلدة صورَهم محتفظةً بالسِّر، وأفكار الخمسينيات والستينيات أعاد الحصار أصحابها إلى ريعان شبابهم...

- يُحْمُر لها أسلوبها في الدفاع عن أعشاشها، تواكب تطور الصناعة وجديدها، تمتشق سلاحها الأكثر حداثة ليكون في خط المواجهة الأول، فهو أمضى عناصر قوتها، تستحضر نجيع شهدائها الذين سقطوا في مواجهة المحتل، وأنّات جرحاها، وعزيمة أسراها..

هذه الصور التاريخية - الملاحم صلاة تُرتِّلُ قصصهم في كوانين الأيام، تستذكرها الآن صيفاً، ودائماً للضرورة أحكامها..

تتدجَّج يُحْمُر بكلِّ هذه الأسلحة معاً، فكلّ سلاح له موقعه، المعركة فاصلة والتحدّي في أوجه، وعلى بركة الله تنطلق مستلهمةً قول العرب: ذلَّ مَنْ لا سيفَ له.. يتقدَّم أبو تمَّام[1] المسير - ثمَّة رابطة دمٍ وحنينٍ وانتماء - منشداً:

السَّيفُ أصدَقُ إنباءً مِنَ الكُتُب
في حَدِّه الحَدُّ بين الجِدِّ واللّعِبِ

(١) تاريخ جبل عامل، محمّد جابر آل صفا، دار النهار للنشر، ص٢٨١.

فتردّد الأفواه خلفه، المواجهة الحالية ليست لعباً بل كلّ الجدّ هي، والفجر الصادق موعداً...

كلُّ شبلٍ يعرف دوره ، فهذا الحصار هو التجربة الخامسة. النسوة يصدحن بصوت الرفض، مثقفون وشيوخ وهيئة تعليمية انتشروا في كلّ اتجاهات الوطن، يعلّمون الفتية معنى الانتماء، دماء المجاهدين تسبقهم، والتكفُّل الاجتماعيّ عنوان المرحلة، إثبات الوجود في هذه المواجهة أخذ أكثر من شكلٍ ولون..

"رفيق علي أحمد" فارس، امتشق راية الجنوب انطلاقاً من حواكير يُحْمُر وحاراتها، ورفرف بها في كل أصقاع الدنيا، تراه الآن يعبر الحفرة الحصار ومعه كلّ فناني الوطن، يحملون خايا فناني الإنسانية جمعاء، قَدِموا إلى يُحْمُر ليتعلّموا درساً في الفنّ الواقعي، وليساهموا في مشهدٍ من مشاهد الإباء الحسيني..

أسماءٌ سَمَتْ بهم يُحْمُر كما ازدادوا شموخاً بعيون الوطن: نضال الأشقر، مارسيل خليفة، روجيه عسّاف، منير كسرواني، رلى حمادة، أحمد قعبور، إبراهيم مرعشلي، أحمد الزين، فوزي بعلبكي، جلال خوري، عبيدو باشا، غازي قهوجي، سامي حوّاط، وآخرون خلفهم..

ما أروع النشيد وهو يلامس الأفئدة والأحلام، ما أجمل المشهد عندما يحاكي الواقع، وما أعذب الكلمة حين تنطق بصدق النفوس والمشاعر..

أمام الحُسينيَّة في الساحة الأرحب تجمهروا، من حولهم كلّ يُحْمُر الصامدة خلف الحصار، يلمح "أبو جميل داود" تسارع الأحداث الجارية أمامه، إنَّه احتفالٌ طارئ، تتطايرُ أوجاع السنين المعشعشة تكلّساً في فقراته، يبني بما تيسَّر له منبراً متواضعاً على عجل، وبمشاورة سريعة يتمُّ التوافق، "عدنان الحاج علي" عريف

الحفل، و"أبو علي أيوب" لسان يُحْمُر لشكر القادمين.

يعتلي "عدنان" المنبر، تُعينه عكَّازة وبعض الأيادي، ويُعلن ابتداء المهرجان، عمر "عدنان" أصغر بكثير من العكَّازة، لكن قبل عقدٍ من الزمن أدخِل مدرسة "أنصار"، دخلها طوداً شامخاً وتخرَّج منها جبلاً يختزن العنفوان، ولصلابة عزيمته اغتالت "تجاربهم الإنسانية" مرونة عضلاته، فأمسى ظهره كجلمود صخر..

يصعد "رفيق علي أحمد" المنبر برفقة "روجيه عسَّاف"، يُعيدان الذاكرة "لأيام الخيام"، ويستحضران "الحكواتي" ليقصَّ حكاية يعيش تفاصيلها جمهور الحفل...

هتاف من هنا يطلب "مارسيل خليفة"، وأصوات من هناك تدعو "أحمد قعبور"، وما بينهما مجموعة تنادي "سامي حوَّاط"، فيصعد الثلاثة معاً إلى المنبر، تصفيق يتواصل لدقائق يتلوه هدوء تام، الرّضع من الأطفال كأنَّ على رؤوسهم الطير..

"أجمل الأمهات التي انتظرت ابنها..."، تنطلق من قلب "مارسيل" ودموع عذبة تنساب على خدَّيه، يصدح "أحمد قعبور" منشداً "أناديكم، أشدُّ على أياديكم.."، يتردَّد الصدى إلى ما خلف القلعة الأسيرة، فترتعد فرائص الغول في أوكاره..

بين الفينة والفينة تُسمع همهمة أطفال رفضوا البقاء منصتين وحدهم، وبادروا مشاركة الحناجر المتوحّدة في القلب والنشيد. فيداعبها "سامي حوّاط" بأسلوبه الخاص، تناغمٌ عميقٌ بين المشاعر والموسيقى، زغرودة تطلقها "الحاجة فوزية"، و"أبو الزُّلُف" يدغدغ أهداب الصبايا، وجولة أخرى من التصفيق..

يصعد "أبو علي أيوب" بعد أن قدَّمه "عدنان" للحاضرين، و"أبو علي" معلّمٌ عريق، طبع حزمه عزماً وتصميماً في أجيال يُحْمُر، عبَّ الماء طويلاً من أجرانها، نما مع البلدة وكبُر معه الانتماء..

يُوصل "أبو علي" الأمانات لأصحابها، آيات شكرٍ واعتزاز، من قلوبٍ تزخر بالحبّ وروح الأمل، إلى قلوبٍ لم تتبَّرأ من قضاياها كما فعل ويفعل كثيرون..

صوتٌ جهوريٌّ يخرج من قلب الجموع، يهواه كلّ الحضور، إنه ابن البلد "أحمد الزين"، يدعو لقراءة الفاتحة لشهداء البلدة، فتبدأ البسملة، ثمَّ يطلب التعرّف إليهم من خلال أبنائهم، فترتفع أيادٍ عديدة من كلّ جهات الحشد المتجمهر، ويتقدَّم نحو المنبر فتى يخجل الصَّقر من عينيه.

يتدارك "أبو جميل" الأمر بسرعة، بضع حركات منه يرتفع المنبر، فأضحتْ عينا "مصطفى" مرمًى لكلّ

العيون، وبعد البسملة يسترسل "مصطفى" مع هذا المشهد النادر، يخاطب من خلالهم كلّ الوطن، يبثُّ بعضاً من أحاسيس القلب، فتهطل الكلمات:

قاتلوهم.. يُعذبْهم اللهُ بأيديكم.. ويُخزِهم.. ويَنصركم عليهم.. ويَشْفِ صُدورَ قومٍ مؤمنين.

أيها الأحباء..

ما زلتُ أحلم وإخوتي باللقاء الهدية، عيوننا شاخصة نحو البحر البعيد، تراقب الأمواج العاتية علَّها ترى أشرعة العودة..

ما انفكَّت كلمات أغنية العودة ونشيد المجاهدين تداعب أسماعي، ولا تزال مسحة الحبّ التي كنتُ أستدرجك إليها أيها الشهيد الحبيب، تداعب فؤادي..

أيها الأعزاء.. ننتعش بسيرة الأحبَّة ونحن نلملم ذكراهم، نحتضن طيف بسماتهم الحنون، نتحسَّس لمساتهم الدافئة، ونتبصَّر طريقنا بنور عيونهم..

هذا طريقٌ طويلٌ صعبٌ خبِرناه، وانتقل بالدَّم والحليب، وطني الذي أفديه، أراه برموش عيونكم أيها الوافدون، أحمِّلكم رسالتي إليه:

أنا الطفل الموزَّع بين حنايا القلب وقهر الأيام، أعلِن، أنَّ مسحة الحبِّ ستكبر يوماً بعد يوم، ولمسات الشهداء

المختلفة تُرافقنا كظلّنا، وأشرعة النصر ننسُجُها بأهداب عيوننا، إننا نتحسَّس أنفاسهم، وننثر الندى على الورود التي تفتَّحت..

أنا الطفل الذي ولد عملاقاً، وينمو شموخاً، ويكبر بمجدهم الذي صنعوه ..

أنا الطفل المعجزة، التي تتكرر يوماً بعد يوم، لتنجب أطفالاً عمرهم بعمر المأساة ..

أنا الشوكة في عيونهم، كما كنت والدي العلقم في حلوقهم..

أنا المأساة التي تصنع البسمة والغد المنشود ..

أنا الشبل الذي تعلَّم البأس وخبِر الزئير ..

لن أركن.. لن أهدأ..

فلي قضيتي التي أعرفها ..

أرى بوضوح مغتصب طفولتي..

أنا ابنُ الشهيد.. أعدكم لن أهدأ..

لن أنهزم إلى اليُتم واليأس والضياع ..

وضعني اليهود في قلب المأساة ..

لكن أنسى لهم أن يعرفوا معنى الشهادة، وصرخة "هيهات منا الذلَّة"..

وغداً، لن يروا إلاَّ زئيري يُزمجر، ليُذكِّرهم بصرخات أبي..

نحنُ أبناء الشهداء..

نملك عيوناً ترى كلَّ الحقيقة، ونملك بصيرة الوعي المبكِّر، والعزيمة والصبر وقوة الإيمان..

أيها الشهداء الأحباء .. أنتم اليقين والصِّراط المستقيم، أنتم الحجَّة ومنارات الطريق، أنتم السَّيف الناطق والقرآن المسلول، أنتم صنَّاع المعاني ومضامينها، أنتم الجمال المعتمر في النفوس أبداً، أنتم البلابل التي تترنَّح مغرِّدةً على أغصان حدائقنا، أنتم الصَّخب الوحيد الذي يحاول زلزلة صمت الأمة، أنتم نبض الجبال الذي فجَّر فيضاً ملأ أرض لبنان بالخصب، أنتم الخصب الدائم على مدار الصباحات، وأنتم الشهداء علينا وعلى الأمة كلّها..

أيُّها العالم، أيّتها البشرية، هؤلاء هم رجالنا فلا تتعجَّبوا، نقفُ أمامهم خاشعين، نزداد إيماناً بصواب الطريق الذي رسموا، ونعاهدهم أن نكون كما يأملون:

العلمُ سلاح، الوعي سلاح، الإيمان سلاح، والجسد أيضاً سلاح..

أحبَّتي.. أشرعة النصر سنحميها بأهداب عيوننا، وسيبقى رصاصكم يوقظ المتردِّدين في زمن الخيانة المخيف، وستبقى أرواحكم سلوتنا الوحيدة..

أبي.. احكِ لنا عن وجعك، عن تواشيح جراحك

النازفة، عن حراب الوحش حين تنخر زهرات الصباح..

يُحْمُر تنتظرك دوماً لتستحِمَّ برحيق الأرض..

يا حكاية الأرض والطلقة الأولى..

يا شهْد الرجال ودفء المقاومين..

لن نبكيك أبي ..لكنَّا نبكي افتقادك وأمثالك في هذا الزمن الصعب..

ما أحوجنا إلى صمتكم في زحمة الكلام..

آهٍ كم نشتاق إليكم.. ويا ربّ ليتك تأخّرت قليلاً بطلبهم..

أيها الشهداء:

مَنْ مثلكم.. تمضون.. ويزداد حضوركم فينا..

يترك "مصطفى" المنبر، ويطلب "أحمد الزين" إعادة الفاتحة ثانية هدية لأرواحهم الطاهرة، وبذات الوقت تصل سيارة "أحمد إبراهيم" إلى الساحة، جعلها الحصار تتفرَّغ للنقل الداخلي في أزقَّة البلدة.

تترجَّل "أم هاشم" ومعها سلال مليئة بفاكهة البلدة الصيفية، بسمة فطرية صادقة تعلو محيَّاها، تتنقَّل بين الجموع بغبطة، عذوبة كلماتها إغراءٌ لا يقاوم، تذوَّق الجميع العنب والتين والصبّار..

يعتلي المنبر "أبو سامر المدير" ويدعو الموجودين لشرب الشاي في داره العامرة بالرجولة، فيسير الجميع بحرية أكبر، ساعة فقط جعلت القادمين يخلعون ثوب الخجل والإحساس بالغربة، تآلفت الوجوه، فإنهم من أهل البيت صاروا.

أثناء المسير يستوقفهم "الأستاذ نمر" يهديهم نسخاً من كتابه الذي أصدره عن البلدة، ليكون لهم ذكرى وليستزيدوا من تاريخها..

"أمُّ سامر" كأمّ العروس أصبحت، أعادها المشهد إلى ريعان الشباب، و"أبو سامر" يشرِّع الأبواب، وبلاغته الخطابية تختصر الأجوبة والمواقف، والفنانة "نضال الأشقر" تهوى التفاصيل..

"أبو سامر" مدير المدرسة ومدبّرها، عقودٌ من الزمن وفصول العائلات تنهل من ينبوعه، تحرّكت العروبة بداخله في هذا الجوّ المشحون، وثارت حمية الشعر لديه، يقف ملكاً أمام ملكة تدمر، وينشد قصيدة سمّاها "أزاهير الجنوب":

أزاهيرُ الجنوب لها عبيرٌ ... يُخالفُ ما تضوعُ به الزُّهورُ
فما عيدٌ أهلَّ له سناءٌ ... ولا أملٌ يرفُّ ولا حبورُ
وتسألُ مَنْ أنا؟ وعلامَ أشكو؟ ... وللآهات في قلبي زفيرُ
أنا الصمتُ البليغُ أنا المُعنّى ... أنا الحسُّ الرقيق أنا الشعورُ
أنا الجرحُ الجنوبيُّ المدمّى ... رفيقي البؤسُ والأملُ المريرُ
ربيبُ الارتحال حملتُ بيتي ... على كتفَيَّ أرهقني المسيرُ
أُسائِلُ يا جنوب إلامَ يُلقى ... عليكَ الهمُّ والعبءُ الكبيرُ
شعوبُ الأرضِ تكبرُ كلَّ يومٍ ... يمرُّ خلالكَ يا وطني الصغيرُ

في لحظة الوداع يهمس "عبيدو باشا" في أذن "إبراهيم مرعشلي"، قائلاً: "إنَّ هذا المهرجان أصدق من كلِّ مهرجانات لبنان، منذ تاريخ الاستقلال الذي علّمونا، وحتى اليوم".

الهيئة التعليمية تضع البرامج، الخبرة تفرض نفسها مسلَّمات ، تتوزَّع جداول خلايا النَّحل بشكلٍ يومي،"أبو علي أحمد ناصر" مناوبته اليوم عند الأسلاك الشائكة في أرنون.

"أبو علي" معلِّمٌ وفيٌّ للأرض والأجيال، يهوى الطليعة عند المِحن والأزمات، تراه حاضراً في كلِّ المناسبات، وواجب القرية فوق كلّ اعتبار..

يتمترس عند الحدود الداخلية للحفرة-الحصار، ومن هناك تبدأ مراسم الضيافة للقادمين، غرفة الاستقبال في بيته العامر تطاولت حتى أطراف البِركة، والبِركةُ أصبحت الجهة الخامسة لجهات الدنيا، تحجُّ إليها عيون الأمة كلّها..

حركةٌ كثيفةٌ قادمة تستعجل الوصول للطرف الآخر من الحفرة، تتهلَّل قسمات "أبو علي" مستبشرة بالباحثين عن الحقيقة، يرحِّب بهم مقاوماً مقاوماً بعزيمة وحماس، يستجمع كلَّ الصحافة ويتقدَّم وسائل الإعلام المتنوعة، توافدوا إلى يحمر ليسهروا الليالي البيض تحت قمرها، ولينهلوا من أهلها معنى التحدِّي والرفض، وليكتبوا مشاهداتهم عن أزقتها العظيمة، لينثروها فوق كل العواصم ..

عند أول بيوت البلدة يعود "أبو علي" إلى طرف

البِركة، لتبدأ مهمَّة الحاج "أبو شوقي" بتقديم العون اللازم للإعلاميين، لم ترَ عينا "أبي شوقي" كليات الصحافة والإعلام، لكنها تستذكر كل الحكايات المختزنة لثلاثة أرباع القرن هي عمره، لم يغادر البلدة قط، فالصمود فضيلة، تفاصيل الفصول والأمكنة والأحداث مؤهلات ينافس بها أصحاب الاختصاص، يقود المسير والبهجة تملأ كيانه..

وفد الصحافة هذا اليوم يتقدّمه صحفيٌّ من النبطية الغرّاء، بلدة العالم "حسن كامل الصبّاح"، إنّه "كامل جابر" والطليعة لديه عادة، بحضوره انحصرت مهمَّة "أبي شوقي"، يُحْمُر غنيَّة بالأحداث، والأخبار لا تتوقَّف، ما أن يغيب هذا الصحفيُّ عن البلدة حتى يعود مدججاً بكلِّ أسلحته، إنه "سفير الحقيقة".

"الصحفي كامل جابر" رمزٌ نحادث كلّ الفدائيين الصحفيين من خلاله، علاقة حبٍّ ووفاء بين البلدة ووسائل الإعلام، و"كامل" ابن يُحْمُر لكثرة الزيارات، بل ابن جنوب الوطن كلّه، اختار حدَّ السِّكين عنواناً..

قذائف الغول بحثت كثيراً عن عدسته لقتلها، لأنها تتحسَّس شُعيرات السُّمِّ في أطراف شظاياهم، وعيونه كما المغناطيس، تلتقط تفاصيل الألم والجمال من زوايا لا نعرفها، ودائماً لديه متَّسع من الوقت، وعدسته

مثله أصبحت تهوى الخصب والورود، تستجمع كلّ قواها التقنية لتُريك أمكنة التلقيح في زهرة دحنون..

يركض كالتائه في الحقول خلف بجعةٍ أحبَّها، يقصد حفرة صاروخ سقط للتوّ. ووردة منتصبة على حافة حفرة قذيفة عمرها ألف عام، يحتضنها "كامل" صورةً معه لتراها كلّ العيون، يقدّم بعض الإرشادات لزملائه الإعلاميين، ويغيب متنقلاً ما بين صبارات "حسن أسعد" وزيتونات "شَوشَبة"، "أرشيفه" الغني عن يُحْمُر فيه كلّ الدلالات، له ولها شرف الانتماء..

وسيلة إعلامية محلية تبثُّ مباشرة من حي الجامع وكأنك أمام متحف اللوفر، وسيلة أخرى أخذت من الساحة مقرّاً لها يُخيَّل إليك أنك في ساحات موسكو العظيمة، مراسل لقناة أجنبية يشرح بدقة متناهية لمشاهديه، حدود يُحْمُر وعلاقتها بمواقع الاحتلال، يسهب في الحديث كأنه أمام سور الصين الخالد.

مراسل لمحطة عربية، لم يعتد رؤية هذا المشهد في بلده، يتلعثم كثيراً أثناء تصويره بعض الأطفال المستمرّين في لهوهم، غير آبهين بالقصف الذي يطال أطراف البلدة، بل كان أحد الصبية يُخبِر الجميع بصوته الحادّ - وبنفس الوقت يحاذر أن يأخذ رفيقه الخصم الكرة من بين قدميه -

هذه قذيفة هاون ١٢٠، وهذا الصوت القريب لقذيفة دبابة، وتلك التي دوّت خلف كرم "الحاج سلمان" وأدّت إلى سقوط بقايا الزجاج في بيت "علي الحاج" المجاور قذيفة ١٥٥، يلعلع الرصاص فيصرخ "هيثم" الصبي "غووووول" والملاعين بدأوا التقنيص بالـ٥٠٠ ...

مصوّر ذو ملامح أجنبية، ترافقه "ليلى"، فتاة من قرية مجاورة، ركّز آلة التصوير مقابل مئذنة البلدة العتيقة، يلفّ ويدور محاولاً إحصاء فتحات التهوية التي أوجدتها قذائف العدو فيها، تتخيَّل أن مشاهديه سيقلّبون الكتب بحثاً عمَّا هو أكبر وأعظم من أهرامات مصر، ولا يعرفونه..!

تحاول "ليلى" استغلال الفرصة لتسجيل كلّ ما تستطيع آلتها الصمَّاء، يتحلَّق حولها بعض النسوة وكثير من الأطفال، يقصُّون لها طريقتهم المختلفة في العيش.

رجلٌ يعلو رأسه بياض غير منتظم، يروح ويجيء حول الجمع محركاً عكازته بكلّ اتجاه، لا ينبس، كأنه أصم، ترمقه "ليلى" بعدة نظرات، ترى مسحة حزنٍ في مشيته وخلف العينين، تستفسر حاله إن كان مريضاً أو ما شابه، تخبرها "رمزية" ابنته: إنَّ هذا الجمع في السَّاحة يحرّك

مشاعره والذكريات، لكنَّ الحصار الهمّ يمنعه من فعل ما يبتغي، لديه إقرارٌ قديمٌ من كلِّ السَّاحات في عاملة بأنه فنان المجوز الأول، نفس الأمكنة منحته إجازة قسرية لا يرغبها، منذ عقدين من الزمن، عكَّازته تتساءل معه الآن، أمَا لهذه الإجازة من نهاية..؟

يمُرُّ "أبو مالك" مخترقاً الجموچ التي احتشدت، إذ لا طريق لبيته غير السَّاحة، يرمق الجميع بنظرته الحنون القاسية، لم يستوقفه المشهد ولم يلقِ السَّلام، تستوضح "ليلى" الأمر، تهمس لها "أمّ توفيق":

(إنَّ "أبا مالك" من خيرة الرجال في بلدتنا وأكثرهم تفاعلاً، لكنه ومنذ ستة أشهر انفجرت شبكة عبوات بقطيعه، كان قد زرعها الصهاينة في "خلّة المغارة"، بسببها فقدَ ثمانين رأساً من الماعز، نصف ما يملك، كما أصيب جسده بعدة إصابات، نجاته كانت من الله، ومنذ ذلك الحين يعتزل "أبو مالك" الكلام.

تتأسَّف "أمّ توفيق" وتتمنى أن يعيده الله كما كان، وأن يعوِّض عليه، ولم تنسَ لعن اليهود ببضع لعنات)..

سبعينيٌّ "أبو محمد سعيِّد"، يمُرُّ والعُود على كتفه، ينهر ثورَيه اللذين جفلا من الجمع غير المعتاد بمسَّاسٍ في يده اليمنى، تسأله "ليلى" وروح الاعتزاز تجعلها تمدّ عنقها من

بين الجمع، فتطول قامتها، ليس غريباً فليلى ابنة هذه الحكايا..

يا "حاج" ما هو شعورك في هذا الزمن العصيب الذي تمرُّون به؟ تسأله دون مقدمات لئلا يفلت منها، يقف ويضرب كعب مسّاسه في الأرض متكئاً عليه:

يا ابنتي .. لقد مرَّ على هذه الأرض عساكر وجنود كُثر ومن كلِّ الدنيا، جميعهم رحلوا، أمَّا نحن فمن هذه الأرض، سنبقى نحن وهم سيرحلون، انظري إليّ، لا اليهود ولا غيرهم يمنعني من القيام بعملي إلا عزرائيل.

يقولها وبسمة تعلو فمه كطفلٍ صغير، ويتابع، عندما نحفر خزاناً أو أساساً لبيتٍ ما، نجد قبور أجدادنا وأشياءَ أودَعُوها تلك القبور من فخاريات وما شابه، ويا ابنتي، لا يعلم إلا الله عمر جدّنا الأول، أما اليهود فقد أتونا بالأمس...

صوتٌ شجيّ يدخل القلب والروح، ينطلق من الحارة الأخرى، يسير الجمع و"ليلى" تتقدَّمه، تزداد بحّة الصوت حزناً كلما اقتربت، ما المناسبة لهذا المجلس تسأل "ليلى"؟ أصوات عدّة لإجابة واحدة:"الذكرى السنوية الثانية عشرة للحاج ناصر عليق".

تستغرب "ليلى" وتُردِّد، الذكرى الثانية عشرة للـ...، تدرك "أم علي خديجة" إشكالية الأمر عليها، فتخبرها أن

"الحاج ناصر" قدَّم خدمات جليلة للبلدة، فالحاج نصف لبنان كان يعرفه وكلّ الجنوب، فقد كان مجبِّراً عربياً ذائع الصيت منذ الخمسينيات، فكانت يُحْمَر به مقصداً من كل القرى والمدن...

زميل "ليلى" تناساها وتاهَ بقصدٍ منه في جمال الصورة، فرصة قد لا تعوَّض، فيُكثر المشاهد ومن كل الجهات..

إعجابٌ واعتزازٌ وواجب، هذا ما تشعر به "ليلى"، والحقيقة أنها تناست زميلها واسترسلت في تسجيل كل شيء، ففي كلِّ لحظةٍ عبرة..

تنتهي مراسم المجلس الحسيني، ضيافة المجلس تستهويها، الرَّاحة والبسكوت والعصير، و"ليلى" مهنتها السؤال دائماً، تستفسر عن الرجل الذي يعتمر الشيب رأسه ترساً طبيعياً، ويُلملم أوراقاً مخطوطةً يتأبَّطها بحرص شديد..؟

إنَّه "الحاج علي ناصر عليق" أو "علي الشيخ" كما يعرفه الجميع، يقول "الحاج توفيق"، الذي كان يحتلّ المقعد الأيمن المجاور أثناء مجلس العزاء، ثمَّ يستطرد، فالحاج "علي" ليس برجل دين معمَّم، إنما والده وجدّه، فكما الكتب والمخطوطات، فقد ورث عنهما اللقب والدور، الله يطيل

عمره، على عاتقه الواجبات الدينية في كلِّ المناسبات..

جُرّها قدماها والمهنة نحو "الحاج علي" الذي يختزن تاريخاً يعود إلى أربعة عشر قرناً. تسأله رأيه في الحصار وتطوره، بعد ترحيبه، يجيبها:

يا بُنيّتي .. نحن نتوقع الأسوأ من اليهود، فالإناء ينضح بما فيه، وإذا وجدوا في كلِّ العالم أسوأ منهم، ينتحرون فرادى وجماعات، أسألك يا ابنتي، هل أحدٌ يقتل نبياً..!؟ يتابع ولا ينتظر الجواب، اليهود فعلوها، فكيف لا يفعلون بنا ما يفعلون، ما دام العرب متفرقين مشتتين، والمسلمون بعيدين عن كتاب الله عزّ وجل..؟

يختصر "الحاج علي" كل القضية بهاتين الكلمتين، تكلّم "ليلى" نفسها.

ثمَّ يلتفت إليها "الحاج علي" كأنه استذكر أمراً ما، يا ابنتي، كي تستطيعي فهم الشخصية اليهودية جيداً، ما عليك إلا قراءة توراتهم ستجدين ما ينير بصيرتك، كما عليك بآيات القرآن الكريم فإنها تزخر بالدلالات التي تختصر الطريق أمامك.

تتبادل "ليلى" مع المرافقين كلمات الشكر قبل الوداع، وتمنياتها أن لا ينتهي هذا النهار الفريد في حياتها الصحفية، وأثناء رجوعها نحو السَّاحة توجهت إلى

النسوة، وسألتهن: لم تخبروني شيئاً عن دور المرأة في بلدتكم خلال هذا الصراع الطويل؟

تسابق "دلال" القول بعجلتها المعهودة، فهي تكاد تكون أمّية، لكنها بالفطرة تفهم الدلالات والمعاني أكثر من أصحاب الإجازات، فتقول:

نحن نُرضع أولادنا الإباء والشموخ مع الحليب، لسنا كباقي النساء في العالم، نسير مع الرجال جنباً الى جنب، ولن تتَّسع كل أوراقك أيتها الصحافية لقصصهن والتحدي، لذا سأكتفي بواقعة رأيتها بأمِّ العين، وبدون توقّف تتابع الكلام:

الحاجة "أم بسام" كعادتها، تكنس الشارع أمام دارها المعمور بالصدق، وبعد الاجتياح بشهر تقريباً، جنازير دبابة أولى تحاول اختراق الزاروب المجاور، ينهار الجدار عند بوابة المنزل، فالمسافة ضيِّقة كما ترين، إذ إن أجدادنا لم يؤسِّسوه لدباباتهم، ولتأكيد مصداقيتها تضيف "دلال"، ذاك الجدار شاهد على ما أقول.

يثور الغضب في عيني "أم بسام"، وتهاجم الرتل المعادي بمكنستها، تضرب الدبابة المهاجِمة الأولى بعدة ضربات، فتتوقف..!

ثمَّ تهاجم الثانية والثالثة حتى أجبرت الرَّتل على

التراجع والانسحاب من المعركة غير المتكافئة..!

انطلقت الزغاريد من كل البيوت، ولم تقترب بعدها جنازيرهم من بيوت الضيعة رغم قرب المواقع، طوال فترة الاحتلال.

تنتشي أنوثة "ليلى" لهذا الخبر العاجل، ثمَّ تطبع قبلة على جبين "دلال" وتتحرَّك للعودة مجبرة، فالعتمة بدأت تلقي بثقلها على أزقَّة البلدة، تفتِّش عن زميلها للخروج قبل المغيب، فالغروب في يُحْمُر إعلان يحاول منع العصافير من عبور البِركة الممر..

المتأمِّل لخطوات "ليلى" يستشعر أنها لمهنة المتاعب قد خُلقت، الصحافة تسري في عروقها والطلّة واللسان، تخرج والغبطة تملأ خلاياها، دخولها البلدة للتضامن، دخلتْها مكتئبة قلقة على مصيرِ بلدةٍ من قرى الوطن، وبعد أن طالَ يومها في أكناف يُحْمُر، فرضت طبيعة الأشياء نفسها، الأهالي أكثر حرية من أولئك المحاصَرين بخوفهم خارج حدودها، فاطمأن قلب "ليلى" للحَمْل النابض في رحم يُحْمُر، واستبشرت بما هو آت...

صبيٌّ يحمل ملفاً من الأوراق ويركض مسرعاً باتجاه "أرنون"، يلحق "بليلى" وزميلها عند الكشَّارة المتوقفة عن العمل عند أول البلدة، قاطعاً مسافة ثلاثة كيلومترات

تقريباً، يتقدَّم صوب "ليلى". ويقول "ساجد" بصوت متقطِّع لشدَّة لهاثه:

"أحتفظ بوصايا كلّ شهداء البلدة وأهديك نسخة عنها"، شكرته "ليلى" ومضت، وألقى "ساجد" بجسده فوق صخرة بجانب الطريق.

في اليوم التالي تشير الصفحة الأولى لكل الصحف الصادرة في "بيروت" لمقالة كتبتها "ليلى"، تحت العنوان التالي: (وصيةُ شهيدٍ لولدِه القادم).

مدنٌ عربية كبيرة لا تنام، بل لا تصحو، عواصم مبجَّلة بأصحاب الفخامات، ملوك ورؤساء كالأصنام، لا يتحركون خوفاً من خللٍ في النظام الكوني، فكلّ واحد منهم مقتنع وبلا جدال، أنه وعرشه يمثِّلان مركز التوازن الحسَّاس لهذا النظام، هؤلاء كلّهم خارج دائرة الضوء هذه الأيام، صوب يُحْمُر تتجه الأعين والقلوب...

صحافيٌّ من إحدى دول النفط يركض مسرعاً يلتفت كالتائه المذعور، يناديه مناد:

"أنِ اهدأ ولا داعي للقلق، ليس ما تسمع سوى لحن جبالنا اعتادت كما اعتدنا عليه، حتى بتنا لا نشعر بحدوثه".

فضولية ابن القرية تحرّكت بداخله، فهو فتى يهوى

الشعر كما الكثيرين في تلك الدساكر، والشعر من الشعور، يحاول امتحان نفسه مع هذا القادم بملامحه من الطرف الآخر للأمة.

أحبُّ الشعر يسأل الفتى..؟

تستفزُّ ذاكرتي بهذا الظرف والمكان..؟ يردُّ الصحفي.

يجيبه الفتى: أستفزُّ ذاكرتك ووقتك، ويلحُّ بطلب قافية مناسبة، فتبدأ المسابقة، وبعد وقت ليس بطويل يتوقَّف القادم بعدما خانته ذاكرته والقدرة ..

يستفيق بعد برهة من حلمه وينظر في عيني الفتى، يتفحَّصه بحذافيره، لم يتمالك نفسه فاحتضنه طويلاً، ولم يستطع كتم دمعة حارة، وسأله: مَنْ أنتَ ومَنْ تكون..؟

ردَّ الفتى ومسحة البراءة تستطيع إدراكها بالرغم من هذه الرجولة الضاغطة، أنا "أحمد مروة ابن الأستاذ محمد"، علَّمني الشعر منذ لحظة الولادة، وأول جملة نطقتها: "الخيل والليل والبيداء تعرفني"..

سالتْ دمعةٌ أخرى على خدَّي هذا الرجل الغريب القريب، أراد الهروب لعدم تكافؤ المعاني بينهما، أحسَّ بضعفه الشديد، وقال للصبي:

دعني أراك قبل خروجي في المساء.

يجيبه "أحمد": كتبت البارحة شعراً حديثاً أول مرّة، قلمي اعتاد الشعر العربي الأصيل، إنها قصيدة أهديها لولَدِك ورفاقه، وأقدّم لك حقّ النشر في الوسيلة الإعلامية التي ترغب، شكره الصحفي وعاود الهرولة بسرعة في زواريب البلدة...

....

تخرج الآهات من أعماق القلب..

تنطلق الحروف مع الزفرات المنفوثة باتجاه الفيافي البعيدة ..

يا أيها القادم من الصحراء، ترنَّم بلغة القرآن، فروحي عربية...

صحارى كانت للسيوف مصنعاً، وللبشرية رسالةً، كانت.. وكان فعلٌ ماضٍ ناقص..

الآن، فُرشتْ رمالاً اصطناعية مستوردة، ومتعددة الألوان..

رسالتها بلون النفط صارت، وسيوفها من الخشب الممتاز..

فأصبحت بِيداً عاقراً ....

استطاع عزم السواعد الصادقة، أن يجعل تلك البلدة التي لن تعثر عليها في أغلب الخرائط الرسمية، مركز الحدث العالمي لمدة شهر كامل، ولم تتعب..! بل كلَّما طال الحصار، ازدادت يقيناً بصدق الخيار، وتألَّقت أكثر إرادة التحدّي والفوز ..

كان مع الحسين الإيمان، وبضعة من الرجال، وانتصر، يصرّح شيخ من البلدة لمجلة كبرى، كلّ الجبروت والقوة مع يزيد، لكنه انهزم، كذلك نحن وهم، لن نهزم فالحقُّ معنا.

يعجبك المشهد رغم مرارة الحصار...

"زينب" فاجأها المخاض ليلاً في عزّ الحصار، مَنْ قال إنَّ المواقف تمرُّ بدون أثمان..؟ لكن للخنوچ تكلفة لا تثمَّن..

لا طبيب ولا قابلة ولا ممرضة ولا سيارة تعبر، فما العمل؟

في مثل هذه الظروف، يقول القدر كلمته ويمشي: نَجَتْ "زينب" لكنَّهم خنقوا المولود كعادتهم..

بكت "زينب" أحلام الحمل دمعتين تحت شجرة الكينا ولم تستسلم، توجهت للباري أن يرزقها توأمين في الحَمْل القادم..!

تأتيك كلُّ الحِكَم المأثورة التي مرَّت أمام مخيّلتك على مقاعد الدراسة، أو لقَّنتك مدرسة الحياة: هيهات منا

الذلّة، ارفع رأسك يا أخي، الحياة وقفة عز، الجهاد بابٌ من أبواب الجنّة، الموقف سلاح، الموت بعزٍّ حياة ... .

تشعر بدوارٍ في رأسك يجعلك تفقد التوازن، تتكئ على مصطبة بجانبك، لم يتأخّر كوب الشاي أنْ حضر أمامك، تأخذ جرعة حياة عميقة، تمتلئ رئتاك، فيستقرُّ بصرك، وتتساءل:

أنّى لهؤلاء القوم كلّ هذا الفَهم الفطري لفلسفة الحياة والموت؟

وهو تساؤل كان قد طرحه ضابط صهيوني على ركّاب سيارة كانت تدخل البلدة عند بركة "أرنون".

توجّه الضابط المذكور إلى السّائق متسائلاً ونار الغضب تقدح من عينيه: من أي طينة أنتم؟ لماذا لا تخافون وتهربون؟

نريد إفراغ بلدتكم من ساكنيها لنمنع عبور"المخربين"، نصطادكم في الحقول والساحات، نقتل وندمر، نجرح ونعتقل، خلال هذا الصيف فقط أحرقنا مواسمكم ثلاث مرات، نجدكم تهبُّون جميعاً لإطفاء الحرائق، ولا تهابون رصاصنا الذي نطلقه، ولا طائراتنا التي تحوم فوقكم، ونرى أنكم تصرُّون على البقاء..؟

فأجابه "أبو منذر" بهدوء: يقولون في كتب التاريخ إنّ

العرب يقسمون إلى قسمين، عاربة ومستعربة، ونحن من الأولى.

تُطِلُّ "أمّ علي بركات" برأسها من نافذة السيارة، تقول له ووجهها يفور دماً: طائراتكم دوماً في السّماء، حصونكم تحيط بنا من كل الجهات (علي الطاهر، قلعة الشقيف، العزيّة، مشروع الطيبة، دير سريان، علمان، الشومرية) يمكنكم أن تدمّروا بيوتنا على رؤوسنا، لكننا لن نغادرها أبداً..!!

بهذا الشموخ وتلك العزيمة، وبقلبٍ واحدٍ زاخرٍ بالحبِّ والتحدّي، بالرغم من الشظايا وقلّة الناصر، انتفضت الجوارح ومسحت عن كاهلها ثقل الحصار..

بتاريخ ٢٧ / ٨ / ١٩٩٤ لملمت يُحْمُر آهات نسائها، وأنّات شيوخها، المبعثرة على جنبات الحفر المستحدثة عند مدخلها الوحيد، نما القُنْدُول بغزارة عند الشريط الشائك هناك، سكنته الفراشات ودموع الأطفال ندًى..

تحوّلت الأسلاك إلى وسام عزٍّ فرض واقعاً جديداً، تفتّحت أعين جيلٍ جديدٍ على العظمة، غنّوا الأناشيد، أوقات القهر التي أودعوها البِركة انقلبت إلى محطات تمتلئ الذّاكرة بها، لتتوالد العزيمة الصّلبة باستمرار..

هذا المكان الممرّ صار رمزاً يرصّع تاريخاً سيفخر به الأبناء والأحفاد، وبقيت يُحْمُر موئل العاشقين، والانتصار الأكبر بات حقيقة تستشعرها القلوب في بلادي..

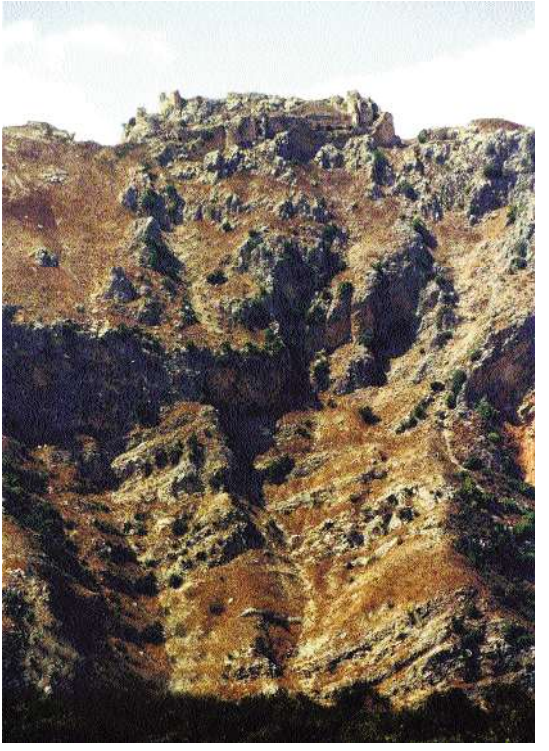

النهار

٣ اهالي يحمر اعتصموا في ساحة النجمة.

الخندق الإسرائيلي يعزل بلدة التبغ والزيتون
أطفال يحمر يكرهون الاحتلال ويخافون الضجر

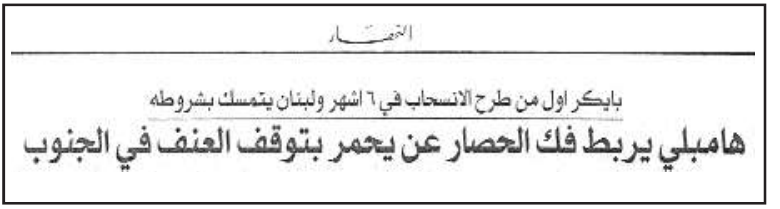

النهار

بايكر اول من طرح الانسحاب في ٦ اشهر ولبنان يتمسك بشروطه

هامبلي يربط فك الحصار عن يحمر بتوقف العنف في الجنوب

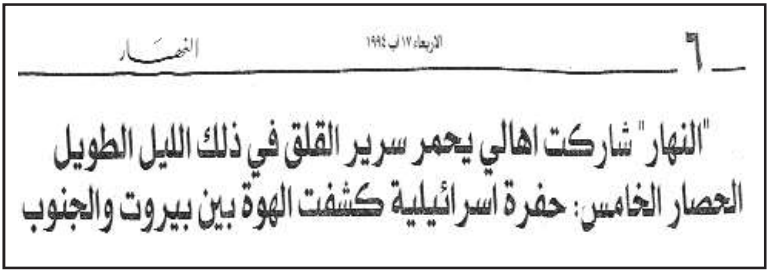

٦ الاربعاء ١٧ آب ١٩٩٤ النهار

"النهار" شاركت اهالي يحمر سرير القلق في ذلك الليل الطويل
الحصار الخامس: حفرة اسرائيلية كشفت الهوة بين بيروت والجنوب

رئيس التحرير
طلال سلمان

السفير
يومية سياسية عربية

١٦ صفحة
١٠٠٠ ليرة

الثلاثاء ٢٣ آب ١٩٩٤ ـ الموافق ١٧ ربيع اول ١٤١٥ هـ ـ العدد ٦٨٦٣ ـ السنة الحادية والعشرون | جريدة لبنان في الوطن العربي وجريدة الوطن العربي في لبنان | 93 - The 21st year

حصار يحمر يدخل يومه الثلاثين وواشنطن تبلّغ فشلها في رفعه
اقتراح رابين نقله هامبلي ورفضته الحكومة اللبنانية؟

"النهار" اجتازت "الحفرة" وخرقت عزلة يحمر

الاهالي لن يرحلوا ويخشون طول الحصار

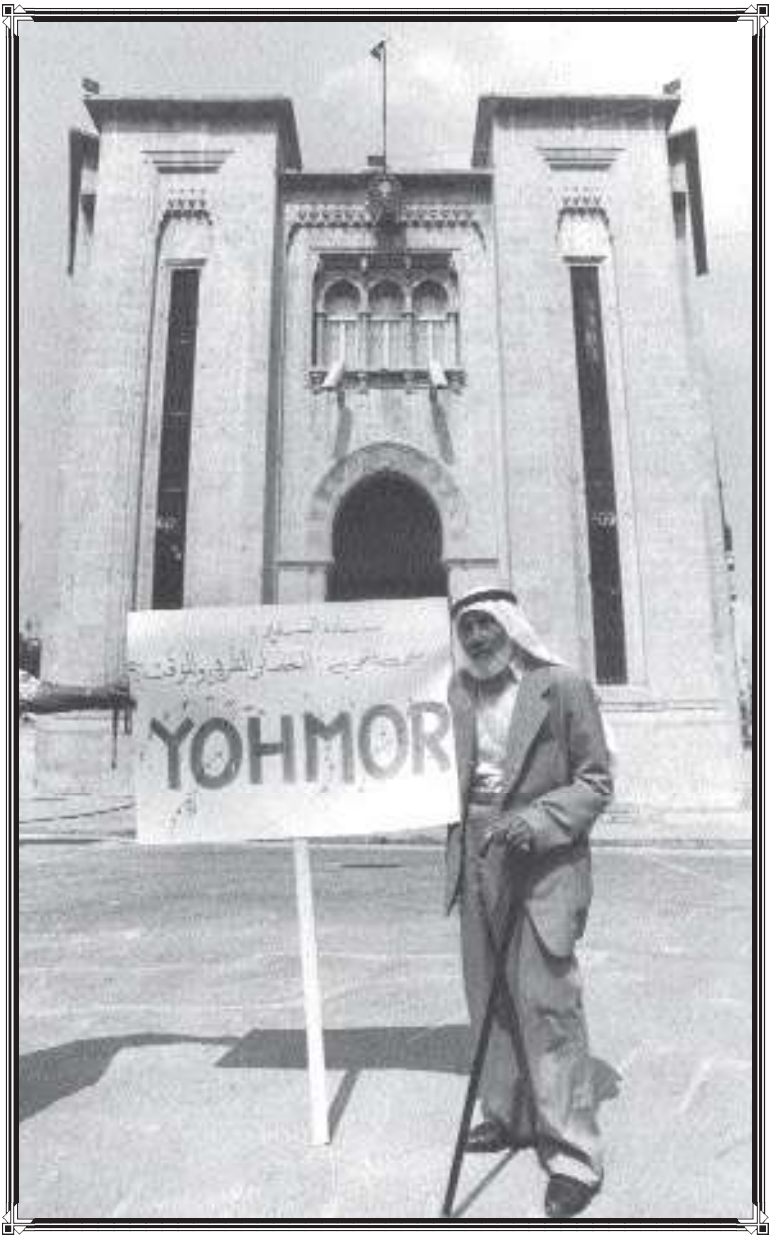
YOHMOR

السبت ٣٠ آب ١٩٩٤

تضامن في صيدا... واعتصام في مجلس النواب الاثنين

فنانون وكتاب مشوا الى يحمر

رفيق علي أحمد يلقي كلمة داخل يحمر المحاصرة، ومرسيل خليفة يدلي برأيه حول الحصار للصحفي كامل جابر

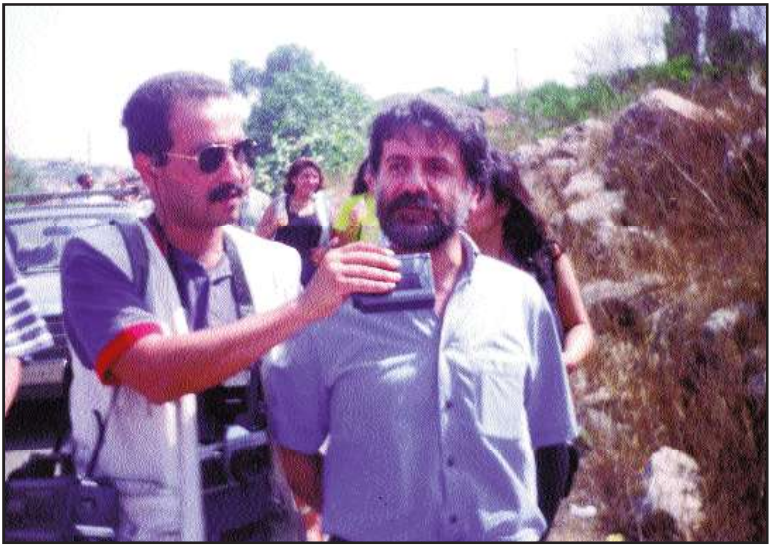

١٩٩٤/٨/٣٥

على الطريق

اليحمريّون!

كانت يحمر هي المحاصَرة والدولة تحاول جاهدة فك الحصار الإسرائيلي عنها.

الآن الدولة هي المحاصَرة والمحصورة، و«اليحمريون» يحاولون التهوين عليها والتخفيف عنها بالتعهد لها بالتستر على فضائح حكمها وآخرها ما صدر عنه حول يحمر والحصار والشفاعات الدولية لفكه!

أما السفير الأميركي المبتهج أبداً فيدور متنقلاً من مسؤول زمني إلى مسؤول ديني مطلقاً سيلاً من التصريحات التي تشهد على اهتمامه الشديد بيحمر وأهلها المحاصَرين، ولعله كان يعني «اليحمريات» حين قال ما مفاده انه لو لم يكن متزوجاً وراضياً في زواجه لما كان اختار عروساً له من خارج لبنان!

لكن هذا كله لا يساعد في كشف ذلك اللغز الحيِّر الذي يتمثّل في حقيقة انه كلما التقى رئيس الحكومة قائد قوات الطوارئ الدولية العاملة في الجنوب، او نائبه، وناقشه في بعض نتائج الاحتلال الإسرائيلي، انتهى الأمر بفضيحة سياسية مبعثها إما سوء الفهم وإما نقص الخبرة وإما الجهل باللغة أو ذلك كله معاً!

لعلّ السر في «آب اللهاب»... فحادثتا سوء الفهم وقعتا في الشهر ذاته، والكل لا يزال يذكر تلك «السقطة» التي انزلق في وهادها الرئيس ـ الشيخ غداة الاجتياح الإسرائيلي بالنار للجنوب قبل عام ونيف من اليوم.

إذاً فحصار يحمر ـ الشقيف مستمر ومفتوح حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

والدولة مستقلة خارج يحمر، والحكم سيظل خارج الدولة وخارج الفهم السياسي الدقيق لما يجري، وسيظل يركض وراء الأوهام المضللة والسراب الخادع بينما يردد بلا كلل شعارات ثقيلة عن الصمود وعن المقاومة وعن التحرير الموعود، في انتظار أن يرن الهاتف ويبشّره السفير الأميركي الضاحك بأن رغبته قد تحققت، فرغبة مولته اوامر!

والسؤال البديهي الذي يفرض نفسه: إذا كانت «المفاوضات» حول فك الحصار الإسرائيلي عن قرية بحجم يحمر ـ الشقيف قد استغرقت كل هذا الوقت (٣٣ يوماً، حتى الساعة) بغير طائل، فهل يجوز بعد ذلك أن يشك عاقل في صدق إسحق رابين حين يقول انه مستعد لسحب جيش الاحتلال من الجنوب، كله خلال فترة لا تزيد على تسعة أشهر؟!

إن رابين لا يكذب،

ولكن إذا أخذنا يحمر مقياساً فإن الانسحاب من كل الجنوب المحتل، ومعه البقاع الغربي، سيتطلّب سنوات إذا كانت المفاوضات على كل قرية ستستغرق مثل ما استغرقته القلعة الحصينة يحمر الشقيف!

ثم إن الإدارة الأميركية لا تكذب،

فإذا كان هذا أقصى مدى للنفوذ الأميركي على الحكومة الإسرائيلية فكم ترى سيكون الضغط فعالاً في موضوع الانسحاب الشامل والزمن الذي يحتاجه؟!

في أي حال، فقد آن للبنان أن يستقر على يقين مؤداه: في كل ما يتصل بإسرائيل ومصالحها الحيوية، وأمنها على وجه التحديد، تبدو الإدارة الأميركية أشد تطرفاً من الحكومة الإسرائيلية.

يكفي أن نستشهد بالنموذج الأرجنتيني الصارخ.

أقبل أن يهدأ دوي الانفجار الذي هزّ العاصمة الأرجنتينية ودمّر مبنى الجمعيات اليهودية موقعاً عشرات القتلى والجرحى، كان وزير خارجية الولايات المتحدة الأميركية وارن كريستوفر يطلق حكمه القاطع بإدانة إيران جازماً بأن دبلوماسييها ورعاياها أو أصدقاءها هم الذين خططوا ونفذوا التفجير الخطير، وهو الثاني من نوعه في تلك البلاد ضد «أهداف» يهودية.

لكن القضاء الأرجنتيني قال كلمة قاطعة، أمس، مبرئاً السفارة الإيرانية وإيران من أية شبهة أو علاقة بموضوع التفجير.

وقد لا تحس الحكومة الإسرائيلية بالحرج نتيجة التبرئة الأرجنتينية لإيران، لأنها ظلت متحفظة في اتهاماتها، ولم تجزم بتحديد هوية المفجّر، في انتظار الدليل الحسي، وإن كانت لمحت إلى «الإسلاميين».

يبقى أن تعثر على من يقنع كريستوفر بأن الأرجنتينيين أعرف منه وأكثر حرصاً على كشف المفجرين، وأن عليه بالتالي ألا يتقدم على الإسرائيليين في ما يخصهم!

... فإذا ما اقتنع كريستوفر، بعد جهد، فمن يقنع معاونيه الذين يمسكون بملف «الشرق الأوسط»، وهم جميعاً ممّن «لا يعملون يوم السبت»؟

للمناسبة، بين التشنيعات التي تردّدها الأوساط الدبلوماسية في واشنطن واحدة تقول «إن دبلوماسياً أجنبياً معتمداً سأل أحد أركان الخارجية الأميركية: هل كل العاملين هنا من اليهود. حقاً؟ فضحك الركن وأجاب: ـ لكننا نفكّر فعلاً بإضافة «جنطايل» ـ أي غير يهودي ـ لكي يؤمّن الدوام أيام السبت».

... ويحمر ستتنظر «سبتاً» بعيد المنال!

طلال سلمان

السفير
يومية سياسية عربية
رئيس التحرير
طلال سلمان

اهالي يحمر اعتصموا في ساحة النجمة ويتوجهون الجمعة الى عوكر

بري: لجنة طوارىء نيابية وفشل الاتصالات مع الاميركيين

الحريري: اشارات مشجعة الى ان الحصار في طريقه الى النهاية

الديار

بعد شهر كامل من الأسر

يحمر استعادت حريتها وفك الحصار الحريري ينفي أن يكون هناك صفقة

«السفير» مع المواطنين في البلدتين: العائدة للوطن والمقطوعة عنه

يحمر تستعيد طريقها وحريتها وفرحتها ينغصها إستمرار حصار أرنون

حتلال يفاجئ الجميع بفتح الطريق ليلاً وأهالي أرنون يعلنون الاعتصام

السفير الاثنين ٢٩/٨/١٩٩٤

عيون

قالت مصادر سياسية عليمة ان ما ساهم في الاسراع برفع الحصار عن بلدة يحمر، خوف المسؤولين في السفارة الاميركية بعوكر من تحول تظاهرة الاهالي اليها الى احتلال و«تخريب».

عيون النسوة يحبِكْنَ شالاتهن من خيوط الشمس، قبضاتُ الرجال لا تزال مرفوعةً تدكُّ حصونهم، وأجسادٌ لفتيةٍ عاملة تتناثرُ مصابيحَ تضيء هضابنا، وسجونٌ تتّسع للشرفاء، كلّما ضاقت الأرض بغاصبها..!

مواسم تتسابق، والزّرع ببَرَكة الأرض والزّارعين وفير، والسّنابل تتمايل بتوالي السنين، والجراح تتعاظم لتبلغ المدى..

تلالنا تستهزئ بجبنهم، تلفظهم الطيور وضوء القمر، الشمس تأنس بالورد وتحتقرهم، والأعراس مواسم ألفة تُعتَمر بالحُب، وفرحٌ بمواليد يأخذون شكل البلدة الآخذة في الاتساع والنمو، تلسعها الأسلاك المزروعة حول مداخل "أرنون"..

ثلّةٌ من عيون الجامعات أذاقوا المحتلّ الذلّ والهوان، اقتلعوا أشواك الأسلاك في حصار "أرنون" عام (١٩٩٩)، وانتصر لبنان.

بعض الفتية من بلدتي بحكم التمرُّس، خلفهم كل الرايات، ينقضُّون ويُعيدون الكرَّة مرَّة أخرى..

يقودون المسير بعيون الوطن، وبعزيمة وإصرار "علي خير الله سعيِّد"، وبثقة سواعد "محمد وكمال وهيثم..."، اقتلعوا أشواك الذُّلّ بقلوب لا ترجُف، وصفعوا بها وجه

المحتلّ البشع، أرادوها بوابةَ القهرِ والإذلالِ والحصار، فحوّلها طلاب الوطن إلى بوابةٍ أولى للتحرير.

المشهد ما زال ماثلاً أمام أعين الأعداء، نفس الوجوه وذات المكان، فيسجّل هذا العام انبعاث منارة أخرى..

"أرنون" تعانق "يُحْمُر" وتتّصل الأوردة، يتسرّب الدم القاني من جديد إلى الأنسجة الذّابلة، زهرات القندول التي نبتت هناك قبل خمسة أعوام خير شاهد، القلعة تترنّح طرباً، والنهر يزيد ويستزيد في تبختره جنوباً، يحتضن بين قطراته إصرار النصر القادم مع القوافل..

يتداخل ضياء المصابيح من كلِّ الاتجاهات، ينمو النور ويكبر، فيتحوّل ليل الرابع والعشرين من أيّار العام ألفين إلى فجرٍ ساطع، تمتدُّ إشعاعاته لتسكن كلّ البيوت، وكلّ القلوب الحالمة بمستقبلٍ لا طغيان فيه ولا محتلّين...